كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

أثر السّياق في دلالة اسم اللّه (الحميد) في القرآن الكريم

إعداد

د/ عائشة إبراهيم حسن الملّاح
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربيّة وآدابها
كليّة اللغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة
ـ جامعة القصيم ـ المملكة العربيّة السعوديّة

(العدد السادس والثلاثون الجزء الثالث ٢٠١٧م)

الملخّص

يتناول البحث اسمَ الله (الحميد) في القرآن الكريم، مبيّنًا أثر السّياق في اختلاف دلالته، وتوصّل إلى أنّ (حميد) له أربع دلالات: الأولى أنّ الله صاحب المحامد كلّها، والثانية أنّه مستحقّ للحمد، والثالثة محمود (مفعول) من الخَلْق لكماله ولِنعَمه عليهم، والرابعة حامِد (فاعل) جميعَ الخلق حمدَ النّعَم والعطاء وحامد المؤمنين حَمْد الثّواب والجزاء. وفي الدّلالتين الأخيرتين يقع الاختلاف والتفاوت بحسب ما يرجّحه السّياق.

وقد ورد اسمُ الله (الحميد) في سبعة عشر موضعًا في القرآن الكريم في أربع عشرة سورة، وضمّتْه خمسةُ سياقات، هي:

ـ الحثّ والوعظ والتثبيت، وفيه جَمَعَت دلالة (حميد) بين المفعوليّة والفاعليّة، فالله تعالى محمود من خلقه أجمع ومن المؤمنين، وهو كذلك حامِدٌ لهم حمد النّعم وحمد الجزاء.

ـ التهديد والوعيد، حيث دلّ (الحميد) على المفعولية فهو المحمود سبحانه لكماله ولِنِعَمِه. ولا تتناسب دلالة الفاعليّة ها هنا سوى من وجه حمد النّعم. واشتمل هذا السياق كذلك على تعداد دلائل وحدانيّة الله وكمال قدرته ومُلكه زيادةً في إظهار الوعيد.

ـ تعليل هداية الناس إلى دين الله تعالى، غلبت فيه دلالة الفاعليّة من وجهيها؛ فالله تعالى حامِدٌ عباده حمد النّعم كهدايتهم إلى توحيده، وهو جلّ وعلا حامِد المؤمنين بالجزاء الحَسَن.

ـ تعليل النّعم العظيمة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته، اقتصرت فيه الدلالة على الفاعليّة، فهو سبحانه حامِد لهم حمد العطاء والنِّعم وحمد الجزاء.

- الامتنان على العباد، ودلّ فيه (الحميد) على الفاعليّة من وجه أنّه حامِد عبادَه حمد النّعم بإحسانه إليهم.

مقدّمة

الحمد لله والصلاة والسّلام على رسول الله، وبعد:

فإنّ أسماء الله الحسنى بيئة خصبة للبحث والدراسة في المجالات المتّصلة بالعقيدة والمتّصلة كذلك باللسانيّات الصرفيّة والمعجميّة والدلاليّة، مع ملاحظة أنّ الثانية تصبّ في الأولى وترفدها بمعين الدلالات وبأساليب كشف المكنونات. فأسماء الله الحسنى طريق لمعرفة صفات الله تعالى التي تعرّف الناس بإلههم وتُعينهم على التعبّد بها والعمل بمقتضاها؛ إذ تُفصح عن مظاهر كماله من المُلك والقدرة والعظمة والجلال والتنزيه ممّا لاحدّ له ولا نهاية، فهي غزيرة المعاني واسعة الدّلالات عميقة المفاهيم.

وقد كان لكثير من العلماء القدامى والمُحدثين اهتمام حثيث بأسماء الله الحسنى، خصوصًا لصلة ذلك بمسائل الردّ على المُلحدين والردّ على بعض الفرق التي خرجت على رأي أهل السنة والجماعة في صفات الله تعالى كالمعطّلة والمشبّهة[1]. وبرز الاهتمام بها كذلك من الباحثين المهتمّين باللسانيات ـ كما أشير

(١) ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أحمد(٧٢٨هـ)، الرسالة التدمرية، تحقيق محمد السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٦، ٢٠٠٠م . والأشقر، عمر، شرح ابن القيّم لأسماء الله الحسنى، دار النفائس، عمّان، ط١، ٢٠٠٨م ، ص ٢٤٦- ٢٥٤ . وابن عثيمين، محمد، شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق أسامة عبد العزيز، دار التيسير، ط١، ٢٠٠٥م

سابقًا ـ الصرفيّة والمعجميّة والسياقيّة[1]، ويُعدّ هذا البحث نتاجًا لمثل الاهتمام الأخير.

والذي يزيد البحثَ في أسماء الله الحسنى أهميّةً وقوعُها في القرآن الكريم في سياقات متعدّدة ومتنوّعة. وهذا البحث الموسوم بـ (أثر السياق في دلالة اسم الله (الحميد) في القرآن الكريم) تناول اسم الله (الحميد) الوارد في القرآن الكريم محاولًا الكشف عن دلالاته التي ترتبط بالسياق.

وقد وقع الاختيار على اسم الله (الحميد) دون غيره من الأسماء الحسنى لأسباب منها:

- عدم وجود دراسة سابقة تختصّ بهذا الاسم، مع ملاحظة تناوله عرَضًا في بعض الدراسات دون الاهتمام به على وجه الخصوص.
- تعدّد دلالته على أكثر من صفة من صفات الله تعالى وأكثر من معنى.
- اختلاف العلماء قديمًا وحديثًا في دلالته على الفاعلية والمفعوليّة.
- تفاوت اهتمام علماء الأصول والتفسير واللغة بالسياق عند بيان دلالة اسم الله (الحميد)، فحتّى عند قولهم بإحدى الدّلالات فإنّها لا تعتمد على تحليلات عميقة يُتّكأ فيها على خصوصيات السياق[2].

---

(١) ينظر عمر، أحمد مختار، أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٠م. وماضي، صبرينة، بلاغة أسماء الله الحسنى بين الدلالة المعجمية والاستخدام القرآنيّ، جامعة فرحات عباس ، الجزائر، رسالة ماجستير، ٢٠١٢م

(٢) يذهب المثنّى محمود إلى أنّه قلّ اعتناء المفسّرين بمقاطع السور وربط آيات المقطع الواحد بعضها ببعض، وكان جُلّ اهتمامهم في السياق منصبّا على آحاد الآيات. ينظر محمود، المثنّى، السياق القرآنيّ وأثره في الترجيح الدلاليّ، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنيّة، عمّان، ٢٠٠٥م، ص١٠٥

لذلك فقد بدأ البحث بتمهيد تناول بإيجاز الركنين اللذين تقوم عليهما عتبة العنوان، وهما: السياق والدلالة. ومن ثمّ شرع ببيان معاني (الحَمْد) و (الحميد) كما وردت في المعاجم وفي بعض كتب علماء اللغة، ثمّ بيّن أقوال علماء الأصول فيها، ومنها انطلق إلى آيات الكتاب الكريم التي اشتملت على هذا الاسم وذلك بتصنيفها ضمن سياقات مختلفة. وعمد البحث أيضًا إلى بيان معاني أسماء الله المقترنة باسمه (الحميد) كلّ منها في موضعه قبل البدء بمناقشة سياق الآيات، لِما لذلك من أهميّة في توضيح الدلالة. ولم يكتف البحث بهذا بل استند إلى تحليل السياق الذي ينتهي بالترجيح، وأخيرًا جاءت الخاتمة تشتمل أهمّ النتائج التي توصّل إليها.

وقد اعتمد البحث في هذا كلّه على المنهج الاستقرائيّ الوصفيّ والمنهج السياقيّ في التحليل.

واستند على عشرة من المفسّرين من أزمنة متفاوتة، كلّهم اتّخذوا السياق مرجعًا لهم في التفسير[1]، وهم الطبري (٣١٠هـ)، والراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، والزمخشري (٥٣٨هـ)، وابن عطيّة (٥٤٢هـ)، والفخر الرازي (٦٠٦هـ)، والقرطبي (٦٧١هـ)، وأبو حيّان الأندلسيّ (٧٤٥هـ)، والبقاعي (٨٨٥هـ)، والألوسي (١٢٧٠هـ)، وابن عاشور (١٣٩٣هـ). على أنّه تجب ملاحظة أنّ هؤلاء المفسّرين

(١) ينظر: الربيعة، محمد، أثر السياق القرآني في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة، رسالة دكتوراة، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ٢٠٠٦م، ص٨٣-٩١

يذكر السيوطي أنّ الراغب الأصفهاني في كتابه (مفردات ألفاظ القرآن) اعتنى كثيرًا بالسياق حيث "يذكر قدرًا زائدًا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ اقتضاه السياق". السيوطي، جلال الدين(٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ج٤/ص٢٢٢

وقع تفاوتٌ غير قليل عندهم في تحليل السياق ـ كما ذُكر آنفًا ـ وإظهار أثره في دلالات النصّ واستخلاص مقاصده من ناحيتين، الأولى: تفاوت فيما بينهم، فلم يكونوا جميعًا على درجة واحدة من الاهتمام بالسياق، فالبقاعي مثلًا أكثر عناية به من الطبري. والناحية الثانية: تفاوت المُفسّر نفسه في الغوص بأعماق السياق وإبراز دوره في الدّلالة من موضع إلى آخر ومن آية إلى أخرى ومن سورة إلى سورة أخرى.

تمهيد

ـ السياق :

السياق في اللغة من الجذر (سوق)، ويقال: ساق يسوق سوقًا وسياقًا، وفيه معنى التتابع[١] والجلب والطّرد[٢] والدفع إلى الأمام أو إلى أعلى والحثّ على التقدّم[٣]، وفي أساس البلاغة "يسوقُ الحديث أحسَنَ سياق، وإليك يُساق الحديث، وهذا الكلام مَساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده"[٤].

فالسياق: المتابعة والتناسق، أي إنّ المعنى المراد من النصّ لا يتبدّى إلّا من خلال دراسة سلسلة الجمل وتتابعها وترابط بعضها ببعض، فهو يكشف عن نظامها وتناسقها، والسياق يربط النصّ بطرفيه أوّله وختامه، فيسوق المعنى إلى غايته التي هي إيصال غرض المتكلم إلى ذهن المخاطب[٥].

وخلاصة القول في مفهوم السياق تتّضح في نوعيه، وهما[٦]:

---

(١) ينظر ابن منظور، جمال الدين(٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت،(د.ت)، مادة (سوق)

(٢) ينظر الأصفهاني، الراغب(٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٩م، ص٤٣٦

(٣) ينظر جبل، محمد، المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م ، ص ١٠٣٢

(٤) الزمخشري، أساس البلاغة، ج١ / ص٤٨٤

(٥) ينظر رشاد، غنيم ، المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية جامعة الملك سعود، ٢٠١٣م، ص١١

(٦) ينظر الطلحي، ردة الله ، دلالة السياق، مطبوعات جامعة أم القرى، سلسلة الرسائل الجامعية، مكة، ط١، ١٤٢٤هـ ، ص ٥١ـ ٥٥. وينظر الكتاب بعامّته

- السياق اللغويّ ويشتمل على كلّ ما يحمله النصّ في داخله من علامات لغويّة، مع ربط اللاحق بالسابق بحيث يضمّ ذلك الفقرة أو فقرات عدّة أو النصّ كلّه.

- السياق غير اللغويّ أو سياق الموقف، ويشمل القرائن الخارجيّة المحيطة بالنصّ كالمتكلّم والمُخاطَب والأحوال العامّة التي تربطهما، وهو ما أسماه علماء العربيّة المقام أو الحال.

فالسياق يُعدُّ ركيزة أساسيّة من ركائز دراسة النصّ، فهو يُسهم في الكشف عن معانيه وفَهم مقاصده وتحديد دلالاته، وقد لقي موضوع السياق اهتمامًا بالغًا من علماء العربيّة قديمًا وحديثًا على اختلاف توجّهاتهم، فتناوله بالبحث والدراسة والتطبيق على مختلف النصوص علماء الدلالة وعلماء النحو والبلاغة والتفسير والفقه وغيرهم.

ولعلّ كتب الأصول والتفسير تُعدّ من أوائل المصادر التي ظهر فيها معنى السياق بوصفه مصطلحًا مرتبطًا بدراسة النصوص وعلى الأخصّ النصّ القرآنيّ، فقد عقد الشافعي بابًا أسماه "الصنف الذي يُبيّن سياقُه معناه"[1]. ويقول ابن تيمية: تختلف دلالة الكلام تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وكثير من وجوه اختلافه قد لا يبين باللفظ نفسه، بل يرجع فيه إلى قصد المتكلّم، وقد يظهر قصده بدلالة الحال[2]. وقد أفرد الزركشي عنوانًا في كتابه "البحر المحيط" أسماه (دلالة السياق)، حيث يصرّح بأنّها متّفق عليها في مجاري كلام الله تعالى،

(١) الشافعي، محمد بن إدريس(٢٠٤هـ) ، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة الحلبي، مصر، ط١، ١٩٤٠م، ج١/ ص٦٢

(٢) ينظر ابن تيمية، تقيّ الدين أحمد (٧٢٨هـ)، الفتاوى الكبرى، تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، دار الكتب العلميّة ، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ج٦/ ص ١٢٣، ١٢٤

فالسياق عنده يُرشدُ إلى تبيين المُجمَلات، وترجيح المُحتمَلات، وتقرير الواضحات[١].

وقد أشار كثير من المفسّرين إلى ضرورة مراعاة سياق الكلام عند تفسير النصّ القرآنيّ، فالطبري يرى أنّه لا يجوز "صرف الكلام عمّا هو في سياقه إلى غيره إلّا بحجّةٍ يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به حُجّة"[٢]. ويقول السيوطي:"وأمّا ما لم يرِد فيه نقلٌ فهو قليل، وطريقُ التوصّل إلى فهمه النّظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومَدلولاتها واستعمالاتها بحسب السياق"[٣].

وأمّا علماء اللغة كابن الأنباري فيقول في بيان أهميّة السياق: "كلامُ العرب يُصحّح بعضُه بعضًا، ويرتبط أولّه بآخره، ولا يُعرَفُ معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه"[٤].

وقد خطّ عبد القاهر الجرجاني طريقًا واضحًا للبحث اللغويّ بوضعه أسس نظريّة النظم، التي تجعل تعلّق الكلِم بعضه ببعض أساسًا في معرفة معناه وتحديد

(١) ينظر الزركشي، بدر الدين(٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير عبد الستار أبو غدة، دار الصفوة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ، ج٦/ ص٥٢

(٢) الطبري، أبو جعفر(٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبدالله التركي، دار هجر للطباعة، ط١، ٢٠٠١م، ج٧/ص٦٧٥

(٣) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٤/ ص ١٠

(٤) ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم(٣٢٨هـ)، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٩٨٧م، ص٢

دلالاته[١]، وتبِعَه في هذا علماء العربيّة عندما قالوا:(إنّ لكلّ مقام مقالًا) و (لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام)، وهم في الأولى قد راعوا ما يسمّى بسياق الحال عند المعاصرين، وفي الثانية راعوا ما يُسمّى بسياق النصّ[٢].

ثمّ أصبح دور السياق أكثر وضوحًا في مناهج العلماء، يقول البطليوسي في مقدمة كتابه "الاقتضاب": "فإنّا رأينا كثيرًا من المفسّرين للأبيات المستشهَد بها، قد غلطوا في معانيها، حين لم يعلموا الأشعار التي وقعت فيها، لأنّ البيت إذا انفرد احتمل تأويلات كثيرة... وأنّ المتكلم في معاني الأبيات المنقطعة عن صواحبها، لا ينبغي أن يقطع على مراد قائلها"[٣]، فالمعنى إذن قد يتغيّر إذا فُصِل البيت من نصّ القصيدة، وربّما يَحتمل دلالات متعدّدة لا يُجزَم بإحداها، ممّا يشير إلى أهميّة دراسة الجزء في إطار الكلّ غير مبتور من سياقه حتى تُفهم المعاني التي أراد الشاعر إيصالها إلى المتلقّي على وجهها الصحيح.

إذن فقد أكّد علماء العربيّة أنّ المعنى الدلاليّ لا يشمل المعنى المعجميّ حسب، بل يشمل أيضًا المعنى الذي تحدّده قرائنُ النصّ اللغويّة وعلاقة بعضها ببعض، ويحدّده المقام كذلك.

---

(١) ينظر الجرجاني، عبد القاهر(٤٧٤هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٤ ـ ٤٢، ٥٣٩

(٢) ينظر عامر، عرفة عبد المقصود، السياق في فكر سيبويه وعلاقته بالمكون التركيبيّ، مجلة المؤتمر الدولي السادس لقسم النحو، ٢٠١٠م، ج١/ص٢

(٣) البطليوسي، أبو محمد(٥٢١هـ)، الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ج٣/ ص٥

وفي العصر الحديث لقي السياق عناية علماء الغرب، حيث نجده عند النقّاد أمثال فندريس وفيرث وأولمان[١].

ووجَدَت نظريةُ السّياق كذلك بيئةً خصبةً عند علماء العربيّة المعاصرين، فأثمرت كثيرًا من التوجّهات التي كان لها كبير الأثر في بيان أبعاد هذه النظريّة وقيمتها وتطبيقها في دراسة النصوص المختلفة، من أمثال محمد أبو موسى[٢]، وإبراهيم خليل[٣]، وتمّام حسّان[٤]، وغيرهم.

كما ظهرت كثير من الدراسات التي تناولت السياق وأبرزت أهميّته في التفسير، مثل " السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري"[٥] لمحمد بنعدة، و"دلالة السياق القرآنيّ وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير "لعبد الحكيم

(١) ينظر فندريس، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ م

وينظر ولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، تعريب كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م

وينظر عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، علم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨م

(٢) أبو موسى، محمد، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م

(٣) ينظر خليل، إبراهيم، السياق وأثره في الدرس اللغوي: دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، رسالة دكتوراه الجامعة الأردنيّة، ١٩٩٠م

(٤) ينظر حسّان، تمّام، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤م

(٥) بنعدة، محمد، السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري، رسالة دكتوراة، جامعة محمد بن عبد الله، المغرب، ١٤١٨هـ

القاسم[١]، و"دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظيّ في قصّة موسى" لفهد الشتوي[٢]، و"السياق القرآنيّ وأثره في الترجيح الدلاليّ" للمثنّى محمود[٣]، و"الخطاب القرآنيّ دراسة في العلاقة بين النصّ والسياق، مثل من سورة البقرة" لخلود العموش[٤]، وغيرها.

ولا يُعدّ الحديث عن نظريّة السياق وأهميّتها وطرح مقوّماتها محورًا في هذا البحث، وهو كذلك ليس بصدد إثبات اهتمام علماء العربيّة بالسياق واتخاذه من الركائز الأساس في فهم النصّ عامّة والقرآنيّ خاصّة، بل هو دراسة تنحو منحى التطبيق وليس التنظير، متّكئة في هذا على اتّفاق علماء العربيّة قديمًا وحديثًا على عدّ السياق دعامة لا يمكن تجاوزها في فهم النصّ وتجلية أسراره وكشف دلالاته.

(١) القاسم، عبد الحكيم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير، رسالة دكتوراه جامعة الإمام، السعودية، ١٤٢٠هـ

(٢) الشتوي، فهد، دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٢٦هـ

(٣) محمود، السياق القرآنيّ وأثره في الترجيح الدلاليّ

(٤) العموش، خلود، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، مثل من سورة البقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، ٢٠٠٨م

ـ الدلالة :

الدلالة هي إبانة الشيء بأمارة تتعلّمُها، والدليل: الأمارة، ويقال: بيّنُ الدَّلالة والدِّلالة[١]. وفي اللسان: الدلّ ما يُشير إلى الحُسن من الهيئة والحديث ونحوهما، وقيل هو الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة. ودلّ إذا هدى، ودلّ على الشيء أي سدّد إليه[٢].

وعن الراغب: "الدّلالة: ما يُتوصّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز"[٣].

فالدلالة إذن هي فعل الدالّ[٤]، أي هي المعاني التي يُنبئ عنها ناتجُ علاقة الكلمات والجمل بعضها ببعض في النصّ.

(١) ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة ، مادة(دلّ)

(٢) ينظر ابن منظور ، لسان العرب، مادة (دلل)

(٣) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣١٦ـ ٣١٧

(٤) ينظر الطلحي، دلالة السياق، ص٢٨

(الحَمْد) و (الحميد)

الحَمْد هو الشُّكر والثّناء[١]، ويشترك المَدْحُ مع الحمد في معنى الثناء ووَصْفِ المَحَاسِنَ[٢]، فالحمد والمدح أخوان من حيث الثناء على الجميل من نعمة وغيرها[٣]، كما أنّ الثناء مدحٌ مُكرّر[٤].

ولمّا كان الحَمْد مُتضمّنًا معنى الشكر والثناء والمدح كما هو واضح، فإنّه من الأجدى التعرّف على معانيها لتتّضح دلالات (الحمد).

يُقال :أَتَيْتُ موْضِعَ كذا فأَحْمدْتُه، وذلك إذا رَضِيتُ سُكْناه أَو مَرْعَاه[٥]. وقد رضي سكناه أو مرعاه لأنّ فيه الكثير من الماء والكلأ ممّا يجعله مانحًا معطاءً لِمَن ارتاده.

(١) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمد)

(٢) ينظر ابن منظور ، لسان العرب، مادة (مدح). والزبيدي، محمد مرتضى الحسيني(١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهرالقاموس، تحقيق عبد الستار فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥، مادة (مدح)

(٣) ينظر: الزمخشري، جار الله (٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ج١/ص٨ . والنيسابوري، أبو عبد الرحمن،(٤٣١هـ)، وجوه القرآن، تحقيق فضل الرحمن الأفغاني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكّة، ١٩٨٤م، ص١٧٤

(٤) العسكريّ، أبو هلال(٣٩٥هـ) ، الفروق اللغويّة، تحقيق محمد السليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٥١

(٥) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمد)

ويُقال أيضًا: هذا طَعامٌ ليستْ عنده مَحْمِدَةٌ[١]، أي لا غَناء فيه ولا فضْل ليحمدَه آكلُه. ويُقال: يَتَحَمَّدُ عليَّ، أَي يَمْتَنُّ عليّ بما يمنَحُني إيّاه[٢].

أمّا الشُّكر فيعني الامتلاء والغُزْر في الشيء. يُقال عن الناقة: حلوبة شَكِرة، إذا أصابت حظًّا من مرعى فغزرَتْ وامتلأتْ باللبن[٣]، وشُكْرُ الدابّة ظُهُورُ العَلَف فيها، ممّا يجعل نماءَها ظاهرًا واضحًا فيُرى سمنها، وإذا نزل القوم منزلًا فأَصابتْ نَعَمُهم شيئًا من بَقْلٍ قد رَبَّ ـ قيل: أَشْكَرَ القومُ. ويُقال أيضًا: اشْتَكَرَت الرياحُ، أي أتت بالمطر[٤]، ومن هذا الباب: شكَرَتْ الشجرةُ، إذا كثر فيئُها[٥].

وأمّا الثناء فمأخوذ من الثني، وهُوَ تكريرُ الشيءِ مَرّتين، أو جَعلهُ شيئَينِ متواليين[٦]، "من قولك ثنيتُ الخيط إذ جعلتُه طاقين"[٧]، ولعلّ سورة الفاتحة سُمّيَت السّبع المَثاني لاشتمالها ثناءً على اللَّهِ تبارك وتعالى مرّة بعد مرّة؛ لأَنّ فيها حَمْدَ اللَّهِ وتوحيدَه وَذِكْرَ مُلْكه يومَ الدّين[٨].

(١) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمد)

(٢) ينظر أبادي، الفيروز(٨٢٣هـ)، القاموس المحيط، تحقيق نصر الهوريني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، مادة (حمد)

(٣) ينظر ابن فارس، أبو الحسين(٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ١٩٩١م، مادة (شكر)

(٤) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (شكر)

(٥) ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (شكر)

(٦) ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ثني)

(٧) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص٥١

(٨) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثني)

وأمّا المدح، فيُقال: امْتَدَحتْ الأَرض وتَمَدَّحَتْ، أي: اتَّسَعَتْ، وتَمَدَّحتْ خَوَاصِرُ الماشِيَة: اتَّسَعَتْ شِبعًا[١]، وينقل الزبيديّ عن الخطيب التّبريزيّ قوله: "المَدْحُ من قولهم: انْمدَحَتِ الأَرضُ، إذا اتَّسَعَت، فَكأَنّ معنَى مَدَحْتَه: وَسَّعْتَ شُكْرَه"[٢].

والمعنى الذي يجمع هذه المفردات التي يُفسّر بعضُها بعضًا هو ما يلي:

أولًا: الامتلاءُ والغزر والكثرةُ والتكرار والسَّعة، وكلّها تعود لما تحتويه من مادتها، فشَكَرَ ضرعُ النّاقة امتلأ باللبن، وشَكَرَتْ الدّابةُ سَمِنَت وكثُر لحمها، وشَكَرَتْ الريحُ حملتْ معها مطرًا غزيرًا، وشَكَرَتْ الشجرةُ كثُرَ ثمرُها، وأثنى أعاد الشّيء مرّة بعد مرّة فكثُر وزاد، وامتدحتْ الأرضُ اتّسعت، وتمدّحتْ الماشية اتّسع بطنُها.

ثانيًا: يَظهر أنّ هذا الامتلاء وهذه الكثرة والزيادة والسّعة لا تكون إلا بشيء طيّب نافع، كاللبن واللحم وماء المطر والثّمر وسَعة الأرض.

ثالثًا: هذه المواد التي تملؤ تلك الأشياء هي في حقيقتها عطاء للغير ينتفعون به.

وممّا سبق يتبيّن أنّ في الحمْد معنى الإنعام المُقيم، ومعنى القوّة والتمكين اللازمين عن الامتلاء والشبع[٣]، وهو معنى فيه دلالة الفاعليّة.

وكما أشير سابقًا فإنّ هذا الامتلاء وهذه الكثرة هي في حقيقتها عطاء للناس ينتفعون به، وهي بهذا تحمل دلالة المفعوليّة، إذن يمكن التوسّع في معنى الحمد فيكون: الإعطاء والإنعام والإفضال. ومعنى الإعطاء أصيل في هذا التركيب من

(١) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (مدح)

(٢) ينظر الزبيدي، تاج العروس من جواهرالقاموس ، مادة (مدح)

(٣) ينظر جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٩٤

الناحية الاشتقاقيّة، وذلك من جهتين، الأولى: وجود أصل هذا المعنى، كما في قولهم :(أرض حَمْد)، أي فيها من الكلأ ما يُشبِع ويُستقَرّ عليه. والجهة الثانية: الصيغة، فصيغة (فَعِل) تحمل معنى المفعوليّة[١]، فكأن مَنْ حَمِد أُعْطِي وانتفع بما أُعْطيه، ويلزم ذلك معنى الشكر[٢].

وممّا يدلّ على معنى المفعوليّة كذلك قول الزبيديّ "الحمْد: الرضا، والجزاء، وقضاء الحق"[٣]، فمعنى الرضا يُعبّر عن وجود نعمة في المحمود استدعت أن يُجزى عليها، وفي لسان العرب " أحمدَه: استبان أنّه مستحقّ للحمد"[٤].

إذن يجمع (الحمْدُ) بين دلالة الفاعليّة والمفعوليّة في آنٍ معًا، وهذه مسألة اختلف فيها العلماء عند بيانهم لما يدلّ عليه اسم الله (الحميد)، فمنهم من قَصَر دلالته على المفعوليّة كالزجّاج بقوله: "هو فعيل، في معنى مفعول، واللهُ تعالى هو المحمود بكلّ لسان وعلى كلّ حال"[٥]، والخطّابي:"هو المحمود الذي استحقّ الحمد

(١) لأنّ صيغة (فعِل) قد تأتي متعدّية مثل (علِم و حمِد)، ينظر الأشبيلي، ابن عصفور(٦٦٩هـ)، المُمتِع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢٤

(٢) ينظر جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، ص٤٩٧

(٣) الزبيدي، تاج العروس، مادة (حمد)

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمد)

(٥) الزجّاج، أبو إسحاق(٣١١هـ)، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق أحمد الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط٦، ١٩٨٦م، ص٥٥

وقد تابع الزجّاجيُّ أستاذه الزجّاجَ في الرأي نفسه. ينظر الزجّاجي، أبو القاسم(٣٤٠هـ)، اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٢٥

بفِعاله، وهو فعيل بمعنى مفعول"[١]، ويتابعهما الغزالي في الرأي، فالله تعالى محمود "بِحَمْدِهِ لنَفسِهِ أزلًا وبحمدِ عباده له أبدًا"[٢]، وعلى المذهب ذاته يسير ابن القيّم، فـ (الحميد) عنده لم يأت " إلا بمعنى محمود، وهو أبلغ من المحمود، فإنّ (فعيلًا) إذا عُدل بها عن مفعول دلّ على أنّ تلك الصفة قد صارت مثل السجيّة والغريزة والخُلق اللازم، كما إذا قُلتَ: فُلانٌ ظَريفٌ أو شريفٌ أو كريمٌ... ولهذا كان (حبيب) أبلغ من (محبوب)؛ لأنّ الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها، فهو حبيب في نفسه وإن قُدّر أنّ غيرَه لا يحبّه لعدم شعوره به، وأمّا المحبوب فهو الذي تعلّق به حبّ المحبّ فصار محبوبًا بحبّ الغير له، وأمّا الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته، تعلّق به حبّ الغير أو لم يتعلّق، وهكذا الحميد والمحمود"[٣]. وهذا يعني أيضًا أنّ الله تعالى (حميد) بذاته؛ لأنّه أحاط بجميع أسباب الحمد وجلال الصفات وكمالها، فهو مستحقّ للحمد سواء أوُجِد الخلقُ الذين يحمدونه أم لم يوجَدوا، أحمدوه أم لم يحمدوه[٤].

وبهذا تكون دلالة اسم الله (الحميد) على المفعوليّة بمعنى محمود من وجهين:

---

(١) الخطّابي، أبوسليمان(٣٨٨هـ)، شأن الدعاء، تحقيق أحمد الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ط٣، ١٩٩٢م، ص٧٨

(٢) الغزالي، أبو حامد(٤٥٠هـ)، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق بسّام الجابي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٣٠

(٣) ابن القيم، شمس الدين(٧٥١هـ)، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط٢، ١٩٩٢م، ص ٢٥٣، ٢٥٤

(٤) ينظر الرازي، فخر الدين (٦٠٦هـ)، لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات، تحقيق محمد الحلبي، ط١، المطبعة الشرفية، مصر، ١٣٢٣هـ، ص٢٢٣

الأول: أنّ الله تعالى حَمِد نفسه منذ الأزل، قبل خَلْق الخَلْق فصار محمودًا، فجميع ما يوصَف به ويُخبَر عنه من كمال الصفات والأفعال محامد[1]، فالله تعالى محمود بذاته، فسّمى نفسَه تبارك وتعالى (حميدًا).

والثاني: أنّ العبادَ حمدوا اللهَ جلّ وعلا، إذ ألهمهم حمْدَه. وحمدُ العبادِ لله نوعان ، الأول: مَحْمُود مُثنى عليه لما يستحقّه هو بنفسه تبارك وتعالى؛ لاتّصافه بنعوت الكمال المُطْلَقُ الذي لا نَقصَ فيه، فهو أَهلٌ أنْ يُحمَد لذَاته ولصفاته ولأسمائه ولأفعاله. والثاني: أنّه سبحانه محمود من عباده على نِعَمِه وإحسانه عليهم، وهو من الشّكر[2].

والفرق بين الحمد والشكر أنّ الحمد أعمّ من الشكر[3]، فالشكر لا يكون إلّا مقابل نعمة وإحسان، فلا يُقال: (شَكَرْنا اللهَ على حياته وسمعِه وبصرِه وعلمِه)؛ لأنّ هذه صفات ذاتيّة فيه يُحمَد عليها. في حين أنّ الحمد يترتّب على أمرين: الأول: على ما يتّصف به الله تعالى من الكمالات فهو في نفسه مستحقّ للحمد، وهذا ذُكِر في النوع الأول من حمْد العبادِ لله تعالى. والثاني: يكون على إحسانه ونعمه على

(١) ينظر السعدي، عبد الرحمن، الحقّ الواضح المُبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسلين من الكافية الشافية، دار ابن القيّم، الدمّام، ط٢، ١٩٨٧م، ص٤٠

(٢) ينظر ابن تيميّة، تقيّ الدين أحمد (٧٢٨هـ)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمّع الملك فهد، المدينة المنوّرة، ١٤١٦هـ، ج٦/ص٨٤

(٣) ينظر الزجّاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى، ص ٨٩، ٩٠

العباد التي يحصل منها منفعة لهم، كالإحسان والمواهب والعطايا، وهنا يلتقي مع معنى الشكر[١]؛ لأنّ النعمة موجبة لحمْد المُنعِم، والنِّعم كلّها من الله تعالى.

ويُفرّق أبو هلال العسكريّ بين الشُّكر والحمْد بقوله:" الاعتماد في الشكر على ما توجِبه النعمة، وفي الحمْد على ما توجِبه الحِكمة"[٢]. ولعلّ العسكريّ قصد أنّ الحمْد يكون مقابل النعمة أو المصيبة على حدّ سواء، فيحمد العبدُ ربَّه رضًا بقدره؛ ليقينه أنّ ذلك وقع لحكمة اقتضاها اللهُ تبارك وتعالى وإنْ خَفيَت عليه، في حين أنّ الشّكر يكون عند حصول النِّعم فقط.

أمّا الراغب الأصفهانيّ وفخر الدين الرازي والبِقاعيّ[٣] فلم يحصروا دلالة (حميد) في المفعوليّة، بل إنّهم يرَون فيها معنى الفاعليّة إلى جانب المفعوليّة، وهو معنى أصيل في (حَمِد) كما أثبت البحث عندما تتبّع دلالته في المعاجم، يقول الراغب:"﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾[هود] يصحّ أن يكون في معنى المحمود وأن يكون في معنى الحامد"[٤]، ويقول الرازي: "حميد (فعيل)، إمّا بمعنى (فاعل)، فإنّه تعالى حامِد لم يزل بثنائه على نفسه وهو قوله﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾[الفاتحة]، وبثنائه على المؤمنين الذين سيوجَدون. وإمّا بمعنى (مفعول) ـ كقتيل، بمعنى مقتول، أي

(١) ينظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٥٦. وابن الجوزي، جمال الدين(٥٩٧هـ)، نُزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق محمد الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤هـ ، ص٢٥١

(٢) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص٤٩

(٣) لا يُقصد بذلك الحصر، فهناك علماء آخرون يذهبون المذهب ذاته مثل الألوسي وابن عاشور كما سنرى في طيّ البحث.

(٤) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٥٦

محمود بحمدِه لنفسِه وبحمدِ عبادِه له"[1]. ويرى البقاعيّ أنّ "الحمد تارة يكون بالنظر إلى الحامد، وتارة بالنظر إلى المحمود، فالثاني اتّصاف المحمود بالجميل، والأول وصف الحامد له بالجميل"[2]. والظّاهر أنّ الأصفهاني ذكر تلك الآية دون غيرها لأنّه التفت إلى نواحٍ أخرى سياقيّة دفعته ليقرر أنّ اسم الله (الحميد) قد يحمل معنى الفاعليّة، وكذلك فعل الرازي والبقاعي.

إذن اسم الله (الحميد) ـ حسب رأيهم ـ يدلّ على الفاعليّة من ناحيتين:

الأولى: أنّ الله تعالى حامِدٌ نفسَه ابتداءً لكماله المُطلَق.

والثانية: أنّه حامِدٌ عبادَه المؤمنين بثنائه عليهم وجزائهم أجرَهم وثوابهم.

ويذهب أحمد مختار عمر إلى أنّ "أصحّ الآراء في معناه أنّه المستحقّ للثناء، فعيل بمعنى مفعول"[3]، فعلى الرغم من أنّ العلماء الأوائل قالوا بجواز المعنيين الفاعليّة والمفعوليّة إلا أنّه قرّر "أصحّ الآراء"، ولعلّه كان من الأسلم الاعتماد على السياقات المختلفة والمتباينة في القرآن قبل الحُكم بهذا.

ويُستخلص ممّا سبق أنّ اسم الله (الحميد) يُعبَّر به عن دلالات أربع:

الدلالة الأولى: أنّ الله جلّ جلاله صاحب الكمالات كلّها، فجميع ما يوصف ويُذكر به ويُخبر عنه من كمال أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله هي محامد.

---

(١) الرازي، لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات، ص٢٢٣

(٢) البقاعي، برهان الدين(٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة، ١٩٨٤م، ج١٥/ ص٤٣١

(٣) عمر، أسماء الله الحسنى، دراسة في البنية والدلالة، ص٥١

الدلالة الثانية: المستحقّ للحمد بذاته؛ لاتّصافه بنعوت الكمال المُطلَقُ الذي لا نَقصَ فيه ـ كما ذُكر. وهذه الدلالة مرتبطة بالأولى أشدّ الارتباط لأنّها نتيجة لها.

الدلالة الثالثة: المفعوليّة، وتتلخّص في أنّه سبحانه وتعالى محمود من جهتين: الأولى من ذاته ابتداءً، والثانية محمود مِن عبادِه لسببين، الأول: لاتّصافه بنعوت الكمال المُطْلَقُ، والثاني: لنِعَمِه عليهم وإحسانه إليهم.

الدلالة الرابعة: الفاعليّة، أي إنّه سبحانه حامِدٌ نفسَه ابتداءً ومن ثمّ حامدٌ عبادَه، وحمدُ الله تعالى للعباد له وجهان[1] :

الأول: حمدُه لعباده أجمع حمدَ نِعَمٍ وعَطاء، وهذا الحمد يتساوى فيه جميعُ الخلق برّهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، إذا يتفضّل عليهم الله تعالى بما يحتاجونه ليقيموا حياتهم.

والوجه الثاني: حمدُه لعباده المؤمنين الصالحين حمدَ جزاءٍ على إيمانهم به وطاعتهم له والتزامهم بما أمرهم ربّهم تبارك وتعالى. وهذه الدلالة تقرُب من معنى شاكر، أي إنّ هذا الحمد مقابل صنيع فعلوه.

(١) الجود نوعان: جود عام مُطلَق عمّ جميعَ الكائنات وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوّعة، وجودٌ خاصّ بالمؤمنين، حيث أعدّ لهم في دار النعيم ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ينظر السعدي، الحقّ الواضح المُبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسلين من الكافية الشافية، ص ٦٦-٦٧

ويشار إلى أنّ صفة الله (الحميد) سواء أقُصد بها الفاعليّة أم المفعوليّة فإنّ دلالتها تنحصر في الثبوت والاستمرار واللزوم[1]، فقولنا حميد (فاعل) أبلغ من حامد؛ لثبوت صفة فعل الحمد الواقع منه، ويُحْمَل هذا على حمده لنفسه أو حمده لخَلقِه بتفضّله عليهم بالنّعم أو حمده للمؤمنين بالمثوبة. وكذا يُقال في حميد (مفعول)، فهو أبلغ من محمود؛ فصفة الحمد الواقع عليه من نفسه أو من خلقه ثابتة ملازمة ودائمة.

والسؤال الذي يحسُن طرحه هنا، هل جميع السياقات التي ورد فيها اسم الله (الحميد) تَحمِل الدّلالات كلّها التي فُصّل فيها سابقًا، أي تحمل دلالة أنّ الله تعالى صاحب الكمالات والمحامد كلّها وتحمل دلالة استحقاقه للحمد، وتحمل دلالة المفعوليّة ودلالة الفاعليّة ؟

إنّ "المعاني الوظيفيّة التي تعبّر عنها المباني الصرفيّة هي بطبيعتها تتّسم بالتعدّد والاحتمال، فالمبنى الصرفيّ الواحد صالح لأن يُعبِّر عن أكثر من معنى واحد ما دام غير متحقّق بعلامة في سياق ما، فإذا تحقّق المعنى بعلامة أصبح نصًّا في معنى واحد بعينه تحدّده القرائنُ اللفظيّة والمعنويّة والحاليّة على السواء"[2]. ولا شكّ أنّ اسم الله (الحميد) يدلّ على المعنيين الأولَين دلالةً واضحة ثابتة بصرف النظر عن السياق الذي يحمله بين طيّاته فالله تعالى مالك المحامد كلّها المستحقّ للحمد. ولكنّ التفاوت والاختلاف يقعان في دلالته على الفاعليّة والمفعوليّة، فمتى يأتي

(١) ينظر السامرائي، فاضل، معاني الأبنية في العربية ، دار عمّار، عمّان، ط٢، ٢٠٠٧م، ص ٥٣. ٥٥، ٦٥. ٦٨

(٢) حسّان ، اللغة العربيّة معناها ومبناها، ص ١٦٣

بمعنى محمود؟ ومتى يأتي بمعنى حامد؟ وما أثر السّياق في إيضاح المعنى وبيان المقصود وتحديد الدلالة؟

الذي يجب الالتفات إليه هو أنّ اسم الله (الحميد) جاء مقترنًا بأسماء أُخر من أسماء الله الحسنى، إلّا في موضع واحد. ومن الثابت أنّ علاقات الاقتران تؤثّر في الدلالات، لا بل إنّ دلالة النصّ هي التي تقتضي الاقترانَ باسم دون آخر، يقول ابنُ القيّم: إنّ من صفات الله تعالى "ما تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنيّ الحميد .. والحميد المجيد، وهكذا عامّة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن"[1]، لذا فإنّ النظر إلى هذا الاقتران من الأسس التي اعتمد عليه البحث للوصول إلى نتائج تقرُب من الصحّة.

وباستقراء الآيات تبيّن أنّ اسم الله (الحميد) ورد في القرآن الكريم سبع عشرة مرَّة، جاءت كلّها فواصل باستثناء مرة واحدة اقترن باسم الله (المجيد) في سورة هود (إنّه حميد مجيد). وقد اقترن باسم الله (الغنيّ) في عشرة مواضع، واقترن باسم الله (العزيز) في ثلاثة، وجاء مقترنًا باسمه (المجيد) مرة واحدة ـ كما أُشير، وواحدة أيضًا باسمه (الحكيم)، وأخرى باسمه (الوليّ)، وجاء منفردًا مرة واحدة فقط.

وتتأثّر الدلالات كذلك بموضوع الآيات والغرض منها، إن كان حثًّا وعظة أو زجرًا ووعيدًا أو غير ذلك، فمن المهمّ "معرفة المعاني التي احتواها المقطع[2]؛ وذلك

(١) ابن القيّم، شمس الدين (٧٥١هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، جدة،(د.ت)، ج١/ص٢٨٣

(٢) يُقصَد بالمقطع مجموع الآيات التي تشتمل على موضوع واحد، وتكثر المقاطع في السور الطوال. ينظر محمود، السياق القرآنيّ وأثره في الترجيح الدلاليّ، ص ١٠٥

لبيان الوجه الراجح من الوجوه المحتملة للألفاظ القرآنيّة، إذ إنّ الوجه الراجح لا يتحدّد ولا يتبيّن إلّا بعد الفهم التامّ للموقع الذي جاء فيه"[1].

كما أنّ هذه الدلالات تتّضح من خلال معرفة المُخاطَبين على اختلافهم وتعدّدهم، إن كانوا المؤمنين أو الكافرين أو الأنبياء أو إن كان الكلامُ حكايةً عن الأنبياء أو غير هذا.

كلّ ذلك تمّت مراعاته والنظر فيه عند تحديد دلالات (حميد) في سياقاتها المختلفة والمتعدّدة.

(١) محمود، السياق القرآنيّ وأثره في الترجيح الدلاليّ، ص١٠٦

سياق الحثّ والوعظ والتثبيت

١ـ سورة البقرة:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

الغَنِيُّ: "هو الذي لا يَحْتاجُ إلى أَحدٍ في شيء وكلُّ أَحَدٍ مُحتاجٌ إليه، وهذا هو الغِنى المُطلَق ولا يُشارك اللهَ تعالى فيه غيرُهُ"(١)، فلا تعلّق لله جلّ وعلا بشيء، لا في ذاته ولا في صفات ذاته، بل هو مُنزّه عن العلاقة مع الأغيار(٢)، و"لا يستحقّ الغِنى المُطلَق إلّا من له الحمد"(٣). والغنيُّ هو النافعُ أيضًا، فقد نقل الزجّاجي عن الزجّاج قوله "النفعُ غيرُ خارجٍ عن معنى الغِنى"(٤)، فالله جلّ وعلا ليس بمُحتاج أحد، وهو في الوقت نفسِه نافعٌ لهم يتفضّل عليهم بعطائه.

بدأت الآياتُ في سياق هذا المقطع من سورة البقرة تُخاطب جميع أمّة محمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وترغّبهم في الإنفاق في سبيل الله(٥)، ثم بيّنت لهم أنّ الإنفاق له شرطان ليكون خالصًا لوجهه سبحانه لينال المؤمنُ به أجرَه، الأول ألّا

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (غنا)

(٢) ينظر الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ، ص١٤٤

(٣) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف(٧٥٦هـ)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٣/ ص١٧٧

(٤) الزجّاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى ، ص١١٩

(٥) اختلف العلماء حول المقصود بالإنفاق، فمنهم من قال هي الزكاة المفروضة، وآخرون قالوا هي صدقة التطوع، وغيرهم قالوا لعلّه يكون عامة الإنفاق. ينظر الرازي، فخر الدين (٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر، دمشق ، ط١، ١٩٨١م، ج٧/ ص٦٥

يُتبعه بالمنّ والأذى[١]، والثاني أن يتحرّى فيه الطيّب من الكسب ويتجنّب اختيار الخبيث الذي يُفسد الصدقات ويُبطل أجورها وأثرها في نفوس الناس في المجتمع الإسلاميّ.

وقد خُتمت الآية موضع الشاهد بقوله تعالى (واعلموا أنّ الله غنيٌّ حميد)، وتَظهَر أهميّةُ الخبر هنا من خلال تأكيده بـ (أنّ)؛ لإشعار المؤمنين المخاطَبين بضرورة الالتزام بما أمرهم من الصدقة الطيّبة، وأيضًا من خلال افتتاحه بـ (اعلموا) لإنزال المُخاطَبين الذين نُهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلة من لا يعلم أنّ الله غنيّ فأعطَوا ما يقبله المُحتاج بكلّ حال، فلم يعلموا أنّه يَحمدُ من يُعطي لوجهه من طيّب الكسب[٢]. وفي أمرهم بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم[٣]، وافتُتحت بـ (اعلموا) كذلك لتوجيه الله تعالى المؤمنين للاهتمام بهذا الخبر الذي سيلقيه عليهم[٤]، ولجعل أسماعهم تستشرفه، وفي هذا تشويق لمعرفة كيف سيقابل الله عز وجلّ كلًّا من المُنفِق من الطيّب والمُنفِق من الخبيث.

ووَصَف نفسَه تعالى بـ (غنيّ) قبل (حميد) للتّشديد على مسألة تحرّي الطيّب في الصدقة؛ ليعلم المؤمنون أنّه غنيّ عن صدقاتهم التي لا تنفع الفقراء أو التي

(١) المنّ هو إظهار الاصطناع إلى المُتصدَّق عليهم، والأذى شكايته منهم بسبب ما أعطاهم. ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧/ص٥٠

(٢) ينظر ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج٣/ص٥٨

(٣) ينظر الألوسي، شهاب الدين(١٢٧٠هـ)، روح المعاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج٢/ص٣٩

(٤) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ص٥٨

فيها استساغة الحرام، وإنّما هي أعمالهم تُرَدُّ عليهم[1]، ولِيدفع توهّم من يظنّ أنّ الله محتاج إلى صدقاته. وفي صفة (غنيّ) أيضًا معنى التوبيخ على ما يصنعون من إعطاء الأشياء الرديئة[2]، فكلّ ما يملكونه وينفقون منه هو من عند الله، فالله تعالى لم يأمر المؤمنين أن يصدّقوا إلّا ليُمحّص قلوبهم[3]، فيبتليهم ليعلَمَ المؤمنَ الصادقَ من غيره.

وصفة الله (حميد) في هذا السياق تدلّ على استحقاق الله تعالى للحمد على ما بسط للمؤمنين من فضله[4]، ويرى معظم المفسّرين أنّ معناها (مفعول)، أي محمود عند خلقه بما أولاهم من نِعَمه[5]، في حين أنّ الرازي والبقاعي والألوسي وابن عاشور يرون أنّ (حميد) في هذا السياق تدلّ على الفاعليّة أيضًا إضافةً إلى دلالتها على المفعوليّة، أي إنّ الله تعالى يحْمَدُهم عَلى ما يفعلونه من الخيرات، ويشكر لمن تصدّق صدقة طيّبة، وهو كقوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٥٨. والأندلسي، أبو حيّان(٧٤٥هـ)، البحر المحيط، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ ، ج٢/ص٦٨١

(٢) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧/ ص٦٩

(٣) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب ج٧/ص٦٩. والقرطبي، شمس الدين (٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ج٣/ص٣٢٨

(٤) ينظر: الأندلسيّ، البحر المحيط، ج٢/ص٦٨١. والألوسي، روح المعاني، ج٢/ص٣٩

(٥) ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٤/ص٧١١. والأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٥٦. وابن عطية، عبد الحقّ(٥٤٢هـ)، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ج١/ص٣٦٣. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٧/ص٦٩. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣/ص٣٢٨. والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٢/ص٦٨١. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ص٥٨

مَّشۡكُورٗا ١٩﴾[الإسراء]، فالله تبارك وتعالى حامِد المؤمنين حمدَ جزاء بقبول الجيّد من الصدقة، فيُثيب المُنفق المُحسِنَ الذي يرغب فيما عند الله(١)، وفي هذا مزيد من حثّ المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق الطيّب.

٢ـ سورة الحجّ [٦٤]: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾

تقصد سورة الحجّ إلى الحثّ على تقوى الله تبارك وتعالى عن طريق الدمج بين أسلوب الترهيب والترغيب، فاقتضى ذلك نذارةً لأعداء الله فهدّدهم وأوعدهم عذابًا شديدًا، واقتضى أيضًا بشارةً للمؤمنين فوعدهم الله عزّ وجلّ بجنّات تجري من تحتها الأنهار، وارتكزت السورة في هذا على تأكيد قدرته سبحانه على البعث وقيام الساعة وحساب الناس، وتخلّل ذلك أيضًا توجيه التفكّر لآلائه وبديع صنعه(٢).

وسياق هذه الآيات موضع الشاهد ينصبّ على إثبات انفراد الله تعالى بالمُلك والقدرة، والقصد من ذلك حثّ المؤمنين على تقوى الله عزّ وجلّ التي تجعلهم يستأهلون إنعامه وتفضّله، حيث أقبل عليهم سبحانه إقبالًا فيه رحمة لهم، معدّدًا آياته في الآفاق وفي أنفسهم(٣).

كما إنّ بيان قدرة الله تبارك تعالى فيه تثبيتٌ للمؤمنين وتقوية لعزائمهم، وقد ذكر سبحانه أنواع مختلفة ومتعدّدة هي دلائل على كمال قدرته، كإيلاج الليل في

(١) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧/ص٦٩. والبقاعيّ، نظم الدرر، ج٤/ص٩١. والألوسي، روح المعاني، ج٢/ ص٣٩. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٥٨

(٢) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٣/ ص١

(٣) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٣ / ص ٧٦ـ ٨٣

النهار وإيلاج النهار في الليل وإنزال الماء من السماء فتصبح الأرض حية يانعة نامية، فيها رزق العباد، وعمار البلاد، بعد أن كانت يابسة لا نفع فيها، وهذا إنتاج للأشياء من أضدادها يشهد بعظيم قدرة الله تبارك وتعالى؛ يُبدل الضدّين الليل نهارًا والنهار ليلًا، كما أنّ الماء في رقّته وميوعه والتراب في كثافته وجموده ضدّان في غاية البعد عن النبات في تنوّعه وخضرته، ونموّه وبهجته[1]. ولعلّ في ذلك تنبيهًا على قدرته على إبدال حال المؤمنين من الضعف إلى الغلبة والنصر والتمكين الذي وعدهم إيّاه في الآية السابقة في السياق ذاته ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ كما أبدل النهار ليلًا والليل نهارًا وأنتج النبات من الماء والتراب.

ومن دلائل قدرته أيضًا قوله (له ما في السموات وما في الأرض وإنّ الله لهو الغنيّ الحميد)، فكلّ خلقه منقاد له غير ممتنع من التصرّف فيه، وتقديم المجرور (له) للدلالة على قصْر الملك عليه سبحانه، ومن تمام ملكه للسموات والأرض أنّه غنيٌّ، بمعنى أنّه مهما أفاض من نِعَم وعطاء على مَن في السموات والأرض فإنّه لا يُنقص ذلك من ملكه شيئًا، وهو غنيّ عن الأشياء كلّها؛ لأنّه كامل لذاته، والكامل لذاته غنيٌّ عن كلّ ما عداه في كلّ الأمور، فكأنّه قال: (إنّه لكونه غنيًّا لم يفعل ما فعله إلّا للإحسان، ومَنْ كان كذلك كان مستحقّا للحمد فوجب أن يكون حميدًا)[2]، بمعنى محمود من عباده على نعمه قالًا وحالًا.

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٣/ ص ٨٢ ، ٨٣ . والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٦٣

(٢) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٦٣

ولا يخفى ما في قوله (وإنّ الله لهو الغنيّ الحميد) من مؤكّدات توثّق في النفس صفتي الغنى والحمد لله تعالى، فـ (إنّ) وضمير الفصل واللام المتّصلة به كلّها تدعم ذلك وتعزّزه.

إذن اسم الله (الحميد) في هذا السياق يدلّ على معاني الحمد كلّها، فهو مالك المحامد جميعًا كصفات القدرة ووهب النّعم فهو المستحقّ للحمد على ذلك. ويدلّ على المفعوليّة كما ذكر الطبري والقرطبي والألوسي وابن عاشور[1]، والمفعوليّة في هذا السياق تتضمّن الوجهين، فهو محمود لكمال مُلكه وقدرته، والمحمود لتفضّله على الخَلْق بأسباب الحياة كإنزال الماء من السماء واخضرار الأرض وتسخيرها للإنسان وجريان السفن في الماء وغيرها ممّا ذكره الحقّ تبارك وتعالى في سياق هذه الآيات، ومحمود كذلك من عباده المؤمنين على إبدال ضعفهم قوّة وتمكينًا.

ويرى ابن عاشور أنّ وصف (الحميد) ذُكر هنا لمزاوجة وصف (الغنيّ)؛ لأنّ اللهَ الغنيَّ مُفيضٌ على الناس ممّا يملك فهم يحمدونه[2].

ولم يذكر أحد من المفسّرين دلالة الفاعليّة، ومع ذلك فإنّ هذه الدلالة مُمكنة في سياق الآيات، فالله تعالى حامدٌ حمْد نِعَم وعَطاء للخلق أجمع كما تَوَضَّح سابقًا، وحامِد عبادَه المؤمنين حمْدَ جزاءٍ لهم ثوابًا على طاعتهم وثباتهم على الإيمان إذ إنّ السياق في مُبتدئه خصّ المهاجرين بالحديث عنهم، لقوله تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٦/ص٦٢٤. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ص٩٢. والألوسي، روح المعاني، ج٩/ص١٨٣. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص ٣٢٠

(٢) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ ص ٣٢٠

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ...﴿٥٩﴾، وفي هذا إشارة واضحة إلى جزائهم وثوابهم.

٣ـ سورة لقمان [١٢]: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ ﴾

إنّ أول ما لقنّه اللهُ تعالى لقمانَ من الحكمة هو النظر في دلائل نفسه وحقيقته؛ ليعلم ما حفّه الله به من نِعَم، والتي منها نعمة اصطفائه لإعطائه الحكمة وإعداده لها. ومن ثمّ الشعور بموجِده وبواهبه جليلِ هذه النِّعم، وذلك العلمُ كلّه أفضى به إلى معرفة الله تعالى وشُكرِه[١]. ومع أنّ ظاهر الخطاب للقمان إلا أنّه في باطنه موجّه للمؤمنين عامّة.

وتقدّم ها هنا الشكر على الكفر للترغيب في الشكر، فأظهرُ ما في السياق الحثّ والنصحُ والإرشادُ والتعليُم[٢]، ثم إنّ الله تعالى بيّن أنّه لا ينتفع بالشكر إلا الشاكر بقوله (ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه)، وزِيد تبيان ذلك بعطف ضدّه فقال (ومن كفر فإنّ الله غنيّ حميد)؛ لإفادة أنّ الإعراضَ عن الشكر بعد استشعاره كفرٌ

(١) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ ص١٤٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ص١٥٢

(٢) يقول الرازي في هذه الآية "لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد" مفاتيح الغيب، ج٢٥/ص١٤٧ ، والظاهر أنّ الرازي غفِل عن أنّ وعظ الأب لم يبدأ بعد، بل هو كلام من الله تعالى للقمان.

للنّعمة[1]، ولا يتضرّر بالكفر غيرُ صاحبه، فالله تعالى غنيّ عن العالمين غير مُحتاج إلى شكر الشاكرين.

وقد وردت (ومن يشكر) بصيغة المستقبل، وفي الكفران (ومن كفر) بصيغة المضيّ، وفي هذا إشارة إلى أنّ الشكر ينبغي أن يتكرّر في كلّ وقت لتكرّر النعمة وتجدّدها، في حين أنّ الكفر ينبغي أن ينقطع لقبحه[2]. ودلّ كذلك على أنّ الكفر كثير متحقّق بخلاف الشكر، لقوله تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ][3]. وفي هذا تعزيز لمعاني الحثّ والتعليم.

وقد أجمع معظم المفسّرين ـ باستثناء البقاعي ـ على أنّ (حميد) في هذا السياق اسم مفعول، فهو محمود في نفسه سواء أشكره الناس أم لم يشكروه، ومحمود كذلك ينطق بحمده جميعُ المخلوقات بلسان الحال[4].

فالبقاعيّ يرى أنّ وصف (غنيّ) متعلّق بكفر الكافر، أمّا (حميد) فمتعلّق بشكر الشاكر، ممّا يجعل اسم الله (الحميد) يدلّ على الفاعليّة، أي إنّ الله حامِد حمدَ جزاء للمؤمنِ الشّاكر لله تعالى المُقرّ بنِعَمِه وفضائله التي لا تُحصى، وهذا على تقدير: (فإنّ الله غنيّ عن فعل الكافر، وحميد لفعل الشاكر)[5]. ولكنّ الألوسيّ يخالف البقاعيّ، فعنده كلا الوصفين (غنيّ حميد) متعلّقان بالشقّ الثاني (ومن

(١) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ ص١٥٢

(٢) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ ص١٤٦

(٣) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج١١/ ص٨٣

(٤) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٨/ص٥٤٩. وابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ج٤/ص٣٤٨. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ص١٤٧، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤/ص٦٢. والألوسي، روح المعاني، ج١١/ص٨٣ . وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ص١٥٣

(٥) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ ص١٦٠

كفر)، وجواب الشرط محذوف قام مقامه قوله تعالى (فإنّ الله غنيّ حميد)، وتقديره (ومن كفر فضرر كفره عائد عليه)؛ لأنّه تعالى غنيّ لا يحتاج إلى الشكر ليتضرّر سبحانه بالكفر. ونتيجة لذلك تكون دلالة (الحميد) عند الألوسيّ على المفعوليّة، أي إنّه محمود باستحقاقه أو بِنُطق ألسنة الحال(١).

ولعلّ البقاعي اعتمد على أنّ هذا هو سياق الحكمة الذي يُظهر معنى التعليم والنصح والإرشاد أكثر من معنى التهديد والوعيد، خصوصًا أنّ الخطاب في ظاهره للقمان ـ أو ربّما عن لقمان ـ وما علّمه الله إيّاه من الحكمة ـ كما أشير، فجيء بوصف (حميد) ليدلّ على الفاعليّة تأكيدًا لما سبق إقراره وهو (ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه)، فشكرُ العبدِ لله تعالى سببٌ في جزائه وإثابته. في حين أشار السياق إشارة حسب إلى كفر الكافر واكتفى ببيان أنّ الله عزّ وجلّ غنيٌّ عنه. ولعلّ هذا هو الأرجح.

٤ـ سورة الحديد: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٤ ﴾

يُخاطب الله عز وجلّ المؤمنين في السياق الذي يضمّ هذه الآية، فيحثّهم على الإنفاق ويرغّبهم فيه ليُبادروا إليه، ثم بيّن الله تبارك وتعالى ما يعوق عن هذا الخير، وهو أحد أمرين: الإمعان في استجلاب الأسى وهو من اليأس ونسيان النِعَم، والثاني زيادة الفَرَح المُوصِل إلى الكِبْر والعُجْب بالنفس. وقد كانت الآيات السابقة في قوله تعالى ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ ... وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ قد أوضحت أنّ التفاخرَ من أوصاف أهل الدنيا، ولذّة

(١) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج١١/ص٨٣

الفخار والاختيال التي أوصل إليها المالُ قد تحمل الإنسانَ على البخل، لذلك قال تعالى واصفًا المختالين الفخورين بأنّهم يبخلون بإخراج حقّ الله الذي أوجبه عليهم فيه، وهم مع بخلهم به يأمرون الناس بالبخل ليكونوا لهم رفقاء في هذا الخلُق السيّء[١]، لذلك عطف عليه قوله (ومن يتولَّ فإنّ الله هو الغنيّ الحميد) ذامًّا البخل محذّرًا منه، فالله غنيٌّ سواء حمده الحامدون أم امتنعوا وجحدوا، فلا يعود ضررٌ عليه سبحانه ببخل ذلك البخيل.

أمّا قوله (الحميد) فكأنّه جواب عن سؤال يُذكر هنا: لمّا كان اللهُ تعالى عالمًا بأنّه يبخل بذلك المال ولا يصرفه إلى وجوه الطاعات، فلِمَ أعطاه إيّاه؟ فأجاب بأنّه تعالى حميد في ذلك الإعطاء، يُنعِم بما يملك على العباد كلّهم، فهو مستحقّ للحمد، فإن قصّر العبدُ في الطاعة فإنّ وباله عائد إليه حسب[٢]، "وجملة (فإنّ الله هو الغنيّ الحميد) قائمة مقام جواب الشرط لأنّ مضمونها علّة للجواب، فالتقدير: (ومن يتولّ فلا يضرّ الله شيئًا ولا يضرّ الفقير؛ لأنّ الله غنيّ عن مال المتولّين، ولأنّ له عبادًا يطيعون أمره فيحمدهم)"[٣].

ولعلّ اسم الله (الحميد) في هذا السياق صالح لمعنيين، الأول مفعول، أي محمود في ذاته لا يضرّه الإعراض عن طاعته[٤]، والثاني فاعل، فالله تعالى حامِد

(١) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ٢٩٧، ٢٩٨

(٢) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ص ٢٤١

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٤١٤

(٤) ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٤/ ص١٨٨. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ص٤١٤

عباده المؤمنين حمدًا كثيرًا؛ لأنّه "يُثيب على فعل الخير ثوابًا جزيلًا ويُثني على فاعله ثناءً جميلًا"(١).

وقد أشار ابن عاشور إلى أنّه نقل هذا الرأي عن ابن العربي في كتابه "أحكام القرآن"، حيث يذهب إلى أنّ وَصْفَه بـ (الحميد) هنا نظير وصفه بـ (الشّكور) في قوله تعالى ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن](٢).

ويؤيّد دلالة الفاعليّة ما جاء في سياق الآيات قبل موضع الشاهد في قوله تعالى ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ فيستثير هِمَم المؤمنين للسّبق إلى مغفرة الله جلّ وعلا، مُرغّبًا إيّاهم بذكر جزائهم جنّةٍ عرضها كعرض السماء والأرض أعدّت لهم.

٥- سورة الممتحنة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾

في سورة الممتحنة وجّه الله عز وجلّ خطابه للمؤمنين في أوضح صوره وأجلاها، مذكّرًا إيّاهم برابطة الإيمان التي تحتّم الاستسلام له والانقياد لأمره وعدم موالاة أعدائه فخاطبهم بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴿١﴾ ﴾، ولا يخفى ما في السورة من

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٧/ ص٤١٤

(٢) يقول ابن العربي:"الحميد يُثني على أوليائه ويُثنون عليه" . ابن العربي، أبو بكر(٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط٣، ٢٠٠٣م، ج٢/ص٣٤٧

وعظ لهم لتربيتهم من خلال ما جرى مع الماضين، فضرب لهم مثلًا إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في موالاة الله والإخلاص له في مواجهة الكافرين والتبرّؤ منهم، وأكّد ذلك بتكرار قوله (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) ، وذلك بأنْ جعل الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي تأسّيهم بالمؤمنين السابقين. ولم تترك الآية نوعًا من التأكيد إلا جاءت به، من ابتداء الجملة الخبريّة بـ (لقد) وتقديم الخبر على اسم كان (أسوة)؛ وفي ذلك حثّ للمؤمنين على الائتساء بإبراهيم في عدم موالاة الكافرين وإنْ كانوا أُوْلي قربى، ومن هذا التأكيد أيضًا ما خُتِمَت به الآية (ومن يتولَّ فإنّ الله هو الغنيّ الحميد)[١].

ويرى الرازي أنّ اسم الله (الحميد) يحتمل المعنيين معًا، فقد يكون بمعنى المحمود من خلقه بما أنْعَم عليهم، وبمعنى الحامد، أي يحمد الخلق ويشكرهم حيث يجزي عبادَه الصالحين بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال[٢].

أمّا البقاعي فيرى أنّ الآية من الاحتباك[٣]، حيث ذَكر اللهُ تبارك وتعالى أولًا سبب السعادة ترغيبًا، وهو الاقتداء بالمؤمنين من قَبلهم، ثمّ ذكر سبب الشقاوة ترهيبًا، وهو التولّي عنهم[٤]. فتقدير الكلام : (مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر فإنّه

(١) ينظر الزمخشري، الكشّاف، ج٤/ص٥١٤

(٢) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٩/ ص٣٠٤

(٣) "الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذف من كلّ واحدٍ منهما مقابلُه؛ لدلالة الآخر عليه" الجرجاني، الشريف(٨١٦هـ)، معجم التعريفات، تحقيق محمد المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة،(د.ت)، ص١٣

ويعرّفه البقاعي بقوله:"هو أن يُحذف من كلّ جملة شيءٌ إيجازًا ويُذكر في الجملة الأخرى ما يدلُّ عليه"، البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٤/ص٢٦٣

(٤) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٩/ ص ٥٠٥

متأسٍ بهم والله حامِد له، ومن يتولّ عنهم فهو لا يرجو الله ولا اليوم الآخر والله غنيٌّ عنه)، وعلى هذا فقد حَصَر معنى (الحميد) بالفاعليّة، أي إنّه حامد حمد جزاء ومثوبة لمن تأسّى بالمؤمنين ولم يتّخذ الكافرين أولياء.

في حين يرى ابن عاشور أنّ "إتْباع (الغنيّ) بوصف (الحميد) تتميم، أي الحميد لمن يمتثل أمره ولا يُعرِض عنه، أو الحميد لمن لا يتّخذ عدوَّه وليًّا على نحو قوله تعالى﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر]"(١)، فتكون عنده بمعنى حامد حمد جزاء ومثوبة. فيلتقي كلّ من الرازي والبقاعي وابن عاشور على معنى الفاعليّة من وجه الجزاء والثواب.

تقوم السياقات الخمسة الآنفة في سورة البقرة، والحجّ[٦٤]، ولقمان[١٢]، والحديد، والممتحنة على معاني الحثّ والوعظ والتثبيت، فسياق البقرة يحثّ المؤمنين على الإنفاق من طيّب الكسب المنزّه من المنّ والأذى ويرغّبهم بأجره وثوابه، وفي الحجّ[٦٤] حثٌّ لهم على تقوى الله تبارك وتعالى وتثبيتهم على الإيمان. وفي لقمان[١٢] تنبيه للمؤمنين على فضل شكر الله تبارك وتعالى وحثّهم عليه، فالشكر رأس الحكمة لأنّها نتاج معرفة العبد ربَّه. وأمّا سورة الحديد فتستثير هِمَم المؤمنين لنيل الجنّة وتحثّهم على الإنفاق وترغّبهم فيه ليُبادروا إليه. وأمّا الممتحنة فيحثّ سياقُ الآيات المؤمنين للائتساء بإبراهيم عليه السلام طاعة لله وولاء له وتبرُّؤًا من الكافرين المُعادين له سبحانه.

ومِن المُلاحَظ أنّ المخاطَب في هذه السياقات هم المؤمنون كما في سورة البقرة ولقمان والحديد والممتحنة، أو النبيّ في سورة الحجّ[٦٤]، وجميع هؤلاء

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨/ ص١٥٠

يُجدي الوعظ معهم، والوعظ يستلزم الإشارة إلى الجزاء والمثوبة الحسنة؛ لأنّ في ذلك مزيدًا من الحث ومزيدًا من قَبول العظة ومزيدًا من الترغيب في الإقبال عليها ومزيدًا من التثبيت، فالنفس تتشوّف إلى معرفة ما ينتظرها من ثواب الله وجزائه. لذلك فإنّ اسم الله (الحميد) يدلّ فيها على الفاعليّة، فهو حامِد المؤمنين الطائعين، ولا ينفي هذا كونه يدلّ على المفعوليّة كذلك فهو محمود من الخَلْق أجمع.

سياق التهديد والوعيد

١ـ سورة النساء: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ١٣١ ﴾

يُجمِع المفسّرون على أنّ سياق الآيات فيه تحذير ووعيد لمن كفر وعصى الله وخالف أمره ونَهْيَه وجَحَد وصيّته، فإنّه لا يضرُّ غير نفسه، وتذكر الآيات أنّ هذه حال أهل الكتاب من قَبل، فقد أوصاهم اللهُ تعالى كما أوصى الناس برأس الأمر كلّه وهو تقوى الله. وقد يكون الخطاب هنا للمؤمنين وحدَهم، أو للمؤمنين وأهل الكتاب اليهود والنصارى، أو يكون للناس عامّة؛ لأنّ وصيّة الله بالتقوى لم تزل منذ أوجَد الله العالَم[1]. فيحذّر الله تبارك وتعالى أن يكونوا أمثالَ اليهود والنصارى في كفرهم، وفي نزول عقوبته بهم، وحلول غضبه عليهم، فغيَّر بهم ما كانوا فيه من حُسن العيش وأمْن السّرب، وذلك أنّ له مُلك جميع ما حَوَته السموات والأرض، لا يمتنع عليه شيء أراده بجميعه أو بشيء منه، من إعزاز وإذلال وغير ذلك من

(١) ينظر الأندلسيّ، البحر المحيط،ج٤/ص٩١

الأمور كلّها، لأنّ الخلق خلقه، إليه يحتاجون، وبه تقوم حياتهم، وبيده بقاؤهم وفناؤهم[١]، ويدعم معنى التحذير والتهديد ما لَحِق ذلك من آيات في قوله تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ .

وقد خُتمت الآية موضع الشاهد بقوله (وكان اللهُ غنيًّا حميدًا)، فهو (غنيّ) فلا حاجة تحلّ به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطرُّه إلى الناس ولا إلى غيرهم، وهذا تخويفٌ لهم وبيانٌ لاقتداره عزّ وجلّ فهو المتصرّف فيهم كيفما شاء [٢]. ووقع الإخبار بـ (كان) عن صفتيّ الله بالغنى والحمد لقصد زيادة الدلالة على الدوام والاستمرار، فالغنى والحمد لم يفارقا ذاته ولن يفارقاها جلّ وعلا[٣].

وتُشير صفة (حميد) في هذا السياق إلى أنّ الله تبارك وتعالى مستحقّ للحمد على صنائعه ونِعَمه العظيمة، فاستوجب الحمدَ على الخلق، وهذه دعوة لهم ليستديموا ذلك بتقواه وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه[٤]. ودلالة (حميد) هنا باقترانها بـ (غنيّ) تشير إلى أنّ الله تعالى لا يتضرّر بكفر الكافرين من أهل الكتاب أو من قريش أو غيرهم[٥]، فسواء أطاعوه أم عصوه فهو محمود في ذاته وإن لم يحمده أحدٌ منهم، ومحمود من خلقه أجمع ليس بألسنتهم حسب، بل بأحوالهم أيضًا وإن لم ينطِقوا، فلسان حالهم يُفصح بالحمد قبل لسان مقالهم. فتجمع صفة (حميد)

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٧/ ص٥٧٩. والأندلسيّ، البحر المحيط،ج٤/ص٩١

(٢) ينظر الزمخشري، الكشّاف، ج١/ص٥٧٤

(٣) ينظر الزركشي، بدر الدين(٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م، ج٤/ ص١٢١-١٢٧

(٤) ينظر: الطبري، جامع البيان،، ج٧/ ص٥٧٩. والزمخشري، الكشّاف، ج١/ص٥٧٤. والرازي، مفاتيح الغيب، ج١١/ص٧١. والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٤/ص٩١

(٥) ينظر: الألوسي، روح المعاني ج٣/ص١٥٨. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥/ ص٢٢٠

بهذا معنى المفعوليّة من الوجهين، أي إنّه محمود بذاته ومحمود من خلقه بحسب ما يذهب إليه الرازي والبقاعي وابن عاشور[1]. أمّا دلالة الفاعليّة فلم يذكرها أحد من المفسّرين في هذا السياق فهي لا تتلاءم مع معاني التهديد والتحذير.

٢- سورة إبراهيم[٨]:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾

جليٌّ أنّ سياق هذه الآية يدور حول تذكير موسى عليه السلام قومَه بما أنعم الله به عليهم من جزيل العطايا والإحسان، وأخبرهم بما أوعدهم الله به من جزاء عظيم إن آمنوا، فالاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا والآخرة، أمّا إن كفروا[2] فلن يلقوا سوى العذاب الشديد؛ وفي إخبارهم بذلك حثّ لهم على ترك الضلال[3]، ولكنّ بني إسرائيل مالوا إلى الكفر والعصيان، وبعضهم انصرف إلى عبادة غير الله، فلمّا رأى موسى عليه السلام منهم ذلك استوجب عليه تهديدهم ووعيدهم فقال (إن تكفروا أنتم ومَنْ في الأرض جميعًا فإنّ الله لغنيٌّ حميد).

ويرى الألوسي أنّ قوله تعالى (فإنّ الله لغنيّ حميد) تعليل لِما حُذف من جواب (إن تكفروا)[4]، وهو محذوف لدلالة معنى السياق عليه، والتقدير:"فإنّما ضرر

(١) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١١/ص٧١. والبقاعيّ، نظم الدرر، ج٥/ ص٤٢٨ وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥/ ص٢٢٠

(٢) سواء ذلك أحُمل على الكفر الذي يقابل الإيمان أو على الكفر الذي يقابل الشكر، فالمعنى لا يتفاوت. ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٩/ص٨٩

(٣) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص٣٨٣

(٤) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج٧/ ص١٨٢

كفركم لاحق بكم، والله تعالى متّصف بالغِنى المُطلَق والحمد"[١]. وقد "دخل في عموم غناه أنّه غنيّ عن الذين يكفرون به"[٢]، فالله سبحانه متعالٍ عن أن ينتفع بالشكر أو يستضرّ بالكفر، فإنّ ذاته كافية في حصول جميع كمالاته[٣].

والتعبير بمضارع فعل الشرط (تكفروا) فيه معنى افتراض تكرّر الحدث وتجدّده، أي (إذا داومتم على الكفر أنتم ومن في الأرض)، ثم أُكّد ذلك بـ (جميعًا) فاقتضى هذا زيادةَ التأكيد في بيان صفات الله تعالى فقال (فَإِنَّ الله لغَنِيٌّ حَمِيدٌ)، فجيء بـ (إنّ) واللام الداخلة على خبرها لتدلّ على أنّ بني إسرائيل أنكروا نِعمَ الله عليهم وإمهاله لهم، ويقول الفرّاء تعقيبًا على هذه الآية:"هذا كلام يقع جوابًا تحقيقًا بعد نفي"[٤]، فتهديد بني إسرائيل وتحذيرهم يوجب إيراد صفتي الغنى والحمد مع هذه المؤكّدات.

ويُضاف إلى ذلك أنّ خلوّ (غنيّ حميد) من التعريف فيه معنى العموم والشمول لغناه وحمده. وفي صفة (حميد) معنى التوبيخ لبني إسرائيل ـ كما يقول ابن عطيّة؛ وذلك أنّه بصفة تُوجِب المحامد كلّها لم يزل ولا يزال، فالله تبارك وتعالى ذو آلاء عليهم، كان يستوجِب بها حمدهم، فكفرهم به مع وضوح ذلك إصرار على الضلال، وهذا توبيخ بيّن[٥].

---

(١) الأندلسيّ، البحر المحيط،ج٦/ص٤١١

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ ص ١٩٥

(٣) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٩/ ص٨٨، ٨٩ . والبقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص٣٨٥

(٤) "كأن قائلًا قال: ما زيد قائم. فقلت :إنّ زيًدا قائم. فأدخلتَ (إنّ) في كلامك تحقيقًا بإزاء ما النافية في كلامه"، الزجّاجي، أبو القاسم(٣٣٧هـ)، كتاب اللامات، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م، ص٧٢

(٥) ينظر ابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٣/ ص٣٢٦

في حين يرى أبو حيّان الأندلسيّ في هذه الآية تحقيرًا لبني إسرائيل وتعظيمًا لله جلّ وعلا، وذلك واضح في الصفتين اللتين وَصَف الله تبارك وتعالى بهما نفسَه في آخرها (غنيّ حميد)[1]، فلا حاجة لله تعالى بهم ولا يزداد مُلكه ولا جَلاله بإيمانهم وعبادتهم، بل هم المنتفعون بِنِعَم الله تعالى عليهم. فهو بليغ الاستحقاق للحمد لكثرة ما يوجبه من أياديه.

وفي صفة (حميد) دلالة على المفعوليّة، فالله تعالى محمود بذاته على ما يتّصف به من صفات الكمال ومحمود على ما له من عظيم النِّعَم، فحتّى لو كفروا به لكانوا حامدين بلسان حالهم كُرهًا، فإنّ كلّ نعمة تنالهم فيحمدونها فإنّما يحمدون الله تعالى لأنّه المتفضّل بها سواء أأدركوا ذلك بعقولهم أم لم يدركوا[2].

وما مِن أحد من المفسّرين ذهب إلى أنّ (حميد) بمعنى حامِد في سياق هذه الآيات سوى السمرقنديّ في "بحر العلوم" فيقول:"حميدٌ لِمَنْ عَبَدَه منكُم بِالمغفرة"[3]، ولعلّ هذا المعنى لا يتناسب وسياق تهديد بني إسرائيل، بل لا يتناسب أيضًا وسياق افتراضِ كُفر مَنْ في الأرض جميعًا.

(١) ينظر الأندلسيّ، البحر المحيط، ج٦/ص٤١١

(٢) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩/ص٣٤٤. والبقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص ٣٨٥. والألوسي، روح المعاني، ج٧/ص١٨٢. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ص١٩٥

(٣) السمرقنديّ، أبو الليث(٣٧٥هـ)، تفسير السمرقندي(بحر العلوم)، تحقيق علي معوّض وعادل عبد الموجود وزكريا النوتي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٢/ص٢٠١

٣. سورة لقمان [٢٦]: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

أثبت الله عزّ وجلّ لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال في السياق الذي ضمّ هذه الآية، وجاء بدلائل ذلك كخلقه السموات والأرض ونعمه الظاهرة والباطنة، وبيّن أنّ الكافرين معترفون بذلك غير منكرين له، فاستحقّ الحمد سبحانه على لسان نبيّه؛ ذلك لأنّه قهرهم بهذا الإقرار وظهر صدقُه صلى الله عليه وسلم وهم في غاية التكذيب، فقال مستأنفًا (قُل الحمدُ لله) على ظهور الحجّة وغلبهم بها. ثمّ بيّن أنّ ما أخبر به أنّه صنعه هو كذلك يملكه، فلا يصحّ إذن أن يكون شيء من ذلك شريكًا له، فقال (لله ما في السموات والأرض)، فخالق السماوات والأرض يحتاج إليه كلّ ما في السماوات والأرض، ولمّا ثبت ذلك نتج قطعًا وصفُ الله تعالى نفسَه بقوله (إنّ الله هو الغنيّ الحميد)، غنيّ لا حاجة به في وجوده وكماله إلى شيء[(١)].

وصفة (الغنيّ) هنا جاءت ردًّا على الكافرين؛ لأنّ ادّعاءهم الشريك يتضمّن إنكارَ غناه، لذلك أكّد بـ (إنّ)، وأظهر كذلك في موضع الإضمار بإعادة لفظ الجلالة (الله) تعظيمًا له سبحانه، إشارة إلى أنّ كلّ ما وُصفَ به ثابت له مطلقًا، فهو غنيّ لأنّه يملك كلّ شيء، وهذا الكلّ محتاج إليه، فوجب أن يكون كذلك مستحقًّا للحمد على ما أنشأ وأنعم، وإن لم يحمدوه[(٢)]، ومستحقًّا كذلك للعبادة.

ويرى الرازي أنّه بعد ذكر الدلائل على أنّ الحمد كلّه لله ولا تصلُح العبادة إلا لله افترق المكلَّفون فريقين مؤمن وكافر، أمّا الكافر فلم يحمد الله وأمّا المؤمن

(١) ينظر: الأندلسيّ، البحر المحيط، ج٨/ص٤١٩. والبقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ ص١٩٦

(٢) ينظر: الزمخشري، الكشّاف، ج٣/ص٥٠٠ . والأندلسي، البحر المحيط، ج٨/ص٤١٩. والبقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ ص١٩٦

فحمِده، فكأنه قال: (إنّه غنيّ عن حمد الحامدين من المؤمنين، ولا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين)، فيتبيّن بذلك إصابة المؤمنين[1].

فهذا سياق يَظهَر فيه إثبات وحدانية الله وقدرته من خلال عرض عدد من آياته في هذا الكون ومحاججة الكافرين ومجادلتهم، فيحمل بذلك معنى الزجر لهم ووعيدهم بعذاب غليظ، واسم الله (الحميد) هنا يدلّ على أنّه تبارك وتعالى صاحب المحامد كلّها، وهذه آلاؤه وعظيم صنعه ناطقة بذلك من خلق السموات والأرض وتسخيرها للإنسان وإسباغ النعم عليه ظاهرة وباطنة ـ كما هو واضح في السياق، ونتيجة لذلك فهو جلّ وعلا المستحقّ للحمد لكماله ولقدرته.

وبذلك يُعزّز السياق معنى المفعوليّة، حيث يرى المفسّرون أنّ الله تبارك وتعالى هو المحمود لاتّصافه بسائر صفات الكمال، ومحمود أيضًا من خلقه أجمع بألسنة الأحوال والأقوال[2]. ولم يذكر أحدٌ منهم دلالة الفاعليّة لأنّها بعيدة عمّا يرومه السياقُ.

٤ـ سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾

مقصود هذه السورة إثبات القدرة الكاملة لله (تعالى) على الخَلْق وعلى البعث، وعلى ما يكون بعد البعث وهو الإبقاء، فالمؤمنون في الجنّة في دار المُقامة، والمشركون في النّار دار الشقاوة، وحالهم دائم بلا انقطاع ولا زوال[3].

---

(١) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ ص١٥٧

(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٨/ص٥٧١. وابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٤/ص٣٥٣. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ ص ١٥٧، والبقاعيّ، نظم الدرر، ج١٥/ ص١٩٦. والألوسي، روح المعاني، ج١١/ص٩٥ . وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ص١٨٠

(٣) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ ص١

وفي السياق المتضمّن هذه الآية دلّ سبحانه على أنّه القادر على كلّ ما يريد، وذلك بما يشاهده كلّ أحد في نفسه وفي غيره، ثمّ ختم بما تتكرّر مشاهدته في كلّ يوم، إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، فأنتج ذلك قطعًا تعظيمًا لله تعالى، فقال ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] الذي له كلّ صفة كمال، المُربّي بجميع النِّعم، فلا ربّ للعالمين سواه. وقد قصر المُلكَ على نفسه جلّ وعلا بقوله (له الملك)[1]. أمّا ما يعبد الناس من دونه كالأصنام فلا يملكون حتى لفافة نواة تمر، وهذا إغراق في تحقيرهم وبيان ضعفهم وفقرهم كما ظهر في الآية السابقة ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾[فاطر].

وما دامت تلك المعبودات فقيرة، فهذا دليل على فقر مَن يعبدهم أيضًا، لذلك جاء النداء بقوله تعالى (يا أيُّها الناس أنتم الفقراء إلى الله)، فهذه هي الحال الحقيقيّة للناس الفقر والفاقة والحاجة الدائمة إلى الله، ثم تبعه ذكرُ الخالق باسمه الأعظم (والله) في قوله (والله هو الغنيّ الحميد) مُظهَرًا في موضع الإضمار؛ لتعظيمه وبيان إحاطتِه بأوصاف الكمال، فهو الغنيّ الحميد، الذي لا يحتاج إلى الناس ولا إلى عبادتهم ولا إلى شيء أصلا[2].

وقد رُوي في سبب النزول أنّه لما كثُر من النبي ﷺ دعوتُه الناسَ لدين الإسلام وإلحاحه عليهم شفقة منه ورحمة بهم . وكثُر الإصرار من الكفار واشتدّ منهم، قالوا:(لعلّ الله تعالى محتاج لعبادتنا)، فنزلت هذه الآيات[3]. فالخطاب ظاهره لعامّة الناس، ومنهم كفارُ قريش الذين قالوا ذلك، وفي هذا الخطاب جملة من

(١) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ ص٢٧ ـ ٢٨

(٢) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ ص ٢٨ـ ٣١

(٣) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج١١/ ص٣٥٦

الرسائل الموجّهة لهم، وهي : (أنتم الفقراء)، (والله هو الغنيّ الحميد)، و ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾[فاطر]، وفي جميعها إظهار لضعفهم وعجزهم، وهي محمّلة بالتهديد والوعيد(١).

وفي صفة (الغنيّ) معنى النفع لخلقه مقابل فقرهم، فهو مُفيض عليهم ولا يُنقص ذلك من ملكه شيئًا، أمّا صفة (الحميد) في هذا السياق فيرى مفسّرون أنّها تدلّ على المفعوليّة، فالله تعالى محمود على نعمه الجليلة على ألسنة المؤمنين من الناس(٢).

ولم يأت على معنى الفاعليّة سوى الرازي وابن عاشور، يقول الرازي " ولستم أنتم لما افتقرتم إليه تركتكم غير مقضيّ الحاجات، بل قضى في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد"(٣)، ويقول ابن عاشور: " موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته... فهو يحمد مَن يتوجّه إليه"(٤)، ومعنى كلامهما أنّ الله تعالى حامد بإغداق النّعم على الناس في الدنيا وحامد حمد مثوبة في الآخرة لمن آمن منهم. ومعنى الفاعليّة هنا يشير إلى أنّ الله تعالى يترفّق في القول مع هؤلاء الكافرين من الناس الذين ادّعوا حاجة الله لهم ولإيمانهم، وهذا لا يتوافق مع سياق تهديدهم ووعيدهم بإفنائهم واستبدال آخرين بهم.

---

(١) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٦/ ص ٣٢

(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٩/ص٣٥٢. والزمخشري، الكشّاف، ج٣/ص٦٠٦. وابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ج٤/ص٤٣٥. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤/ص٣٣٧. والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٩/ص٢٣ . والألوسي، روح المعاني، ج١١/ ص٣٥٦

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٦/ ص١٣

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ / ص٢٨٦

ولعلّ دلالة المفعوليّة أشدّ ارتباطًا بالسياق ها هنا، فالله تبارك وتعالى محمود على كمال ذاته وعلى جليل نِعَمه من الخلق أجمع، فحالهم ناطقة بذلك وإن لم يؤمنوا به، ومحمود أيضًا من عباده المؤمنين.

٥- سورة التغابن: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾

تقيم سورة التغابن الدليل القاطع على أنّ الله تعالى له الحمد ودوام التنزّه عن كلّ شائبة نقص، حيث تُرشد السورة إلى النظر في أفعاله والتفكّر في مصنوعاته لأنّه الطريق إلى معرفته، ومن أعظم الدلائل عليه سبحانه آيات الآفاق وآيات الأنفس؛ لذلك ذكرَ خلقَه للسموات والأرض وإبداع خلقِه للنّاس، وفي هذا دليل قطعيّ على شمول علمه، إشارةً إلى أنّ مَن لم يكن كامل العلم فهو ناقص القدرة، فقال ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾[التغابن]، وقد عبّر عن علمه سبحانه بصيغة المضارعة (يعلم)، أي إنّ علمه حاصل في الماضي والحال والمآل ومحيط بالخلق كلّه من سموات وأرض وما يفعل الناس في السرّ والعلن، وتكرار (يعلم) في معنى تكرار تقرير القدرة وتكرار الوعيد لمن كفر ولم يؤمن بعد وضوح الدلائل[1].

(١) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج٢٠/ ص ١١٠، ١١١

والخطاب في قوله تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا) لكفّار مكة[١]، وقيل لأهل مكة عامّة[٢]، وفيه تحذير لهم وتهديد ووعيد أن يصيبهم ما أصاب الأقوام الذين سبقوهم من عذاب نزل بهم في الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة، وذلك بأنّ حالهم مثل حالهم من تكذيب الأنبياء، فكفروا وتولّوا عن الإيمان وأعرضوا عن عبادة الله تبارك وتعالى، وقد استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل. ويرى أبو حيّان الأندلسي أنّ الله تعالى أظهر غناه عنهم إذ أهلكهم[٣]، واستغنى "بسلطانه عن طاعة عباده"[٤].

وخُتمت الآية بقوله تعالى (والله غنيّ حميد) واصفًا نفسه بالغنى والحمد في جملة خالية من المؤكّدات خلافًا لمقتضى الظاهر تحقيرًا لهؤلاء الكفّار الذين كفروا بالرسل وتولّوا عن البرهان وأعرضوا عن الإيمان والموعظة، فلا ينفع معهم قولٌ ولا حُجّة، وأعاد ذكر لفظ الجلالة (والله) تعظيمًا له.

وقد ذهب الطبري إلى أنّ (حميد) بمعنى محمود عند خلقه جميعًا بجميل أياديه عندهم، وإلى المعنى ذاته ذهب كلّ من الرازي والألوسي[٥]. إلّا أنّ الرازي يجوّز أيضًا دلالة الفاعليّة ـ إلى جانب المفعوليّة ـ يقول:"ويكون بمعنى الحامد"[٦]،

(١) ينظر:الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ص ٢٣ ، وابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٥/ص٣١٥

(٢) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج١٤/ص ٣١٧

(٣) ينظر الأندلسي، البحر المحيط، ج١٠/ص١٨٩

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٨/ص١٣٥

(٥) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٣/ ص٨. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ص ٢٣ . والألوسي، روح المعاني، ج١٤/ص٣١٧

(٦) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣٠/ ص ٢٣

وإلى الفاعليّة كذلك يذهب ابن عاشور فيقول:"حميد لمن امتثل وشكر"(١)، ولا يفصّل أيّ منهما في علاقة ذلك بالسياق من أيّ وجه، فجاء كلامهما غير مكين من هذا المعنى، وهو خلاف ما يُفهَم من ظاهر سياق النصّ كما أوضح البحث، لذا فلعلّ دلالة المفعوليّة هي الأقرب والأكثر انسجامًا مع السياق، فهو سياق الزجر والوعيد بأن يُقارب العذاب أن يصيب الكفّار كما أصاب قبلهم من الأمم، فالله تبارك وتعالى محمود بذاته ومحمود من عباده على نِعَمِه عليهم كنعمة خَلْقهم في أحسن صورة ونعمة إرسال المُرسَلين مُبشّرين ومُنذِرين ـ بحسب ما جاء في سياق الآيات.

٦ـ سورة فُصّلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾

الحكيم هو "العالِم الذي ليس في كلامه لَغوٌ ولا في تدبيره خَلل ولا في فِعْله لَعِب"(٢)، يُحْسِنُ دَقَائِقَ الأمور ويُتقنها(٣).

افتُتحت هذه السورة بالإخبار بأنّ القرآن رحمة لمن أراد أن يعلم ويتدبّر ويتّعظ ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ ، وكرّر الوصف بالرحمة في صفة العموم (الرحمن) وصفة الخصوص (الرحيم) إشارة إلى أنّ الرحمة بإنزال الكتاب وإرسال الرسل عامّة للكافر والمؤمن، وأعلمَ أنّ القرآن الكريم فُصّل تفصيلًا وبُيّن تبيينًا، لا يضرّه جدال مُجادِل، ولا كيد مُماحِك مُماحِل(٤)، ذلك أنّ هذه السورة أشارت إلى ما كان الكافرون

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٨/ ص٢٧٠
(٢) النيسابوري، وجوه القرآن، ص١٨٣
(٣) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (حكم)
(٤) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ١٣٥

المُلحِدون يميلون إليه من "صرف المعاني عن القصد وسُنن العدل بنحو قولهم ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ۝٣﴾[الزمر]، أو يُماحلون باللغو والمُكاء والتصدية وغير ذلك من أنواع اللغط"[1].

والشاهد هنا جاء في سياق إثبات بطلان ادّعاء الكافرين المُلحدين مِن جعلهم المخلوقات شركاءَ لله في الألوهية، وذلك بعرض دلائل وحدانيّته تبارك وتعالى، كخلقه الشمس والقمر وإحيائه الأرض بإنزال الماء عليها فأنتجت الشجر والثمر، وفي ذلك إظهار لقدرة الله التامّة وعظمته التي لا يُنكرها أحد، لذلك ربط بينها وبين قدرته على إحياء الموتى وبعث الناس، فالقادر قدرة تامّة على شيء منها قادر على غيره. ثمّ إنّ الله تعالى ـ فيما سبق من آيات ـ توعّد هؤلاء المُلحدين مخوّفًا بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾[فصّلت]، وقد صرف القول عن الغيبة إلى الخطاب (اعملوا ما شئتم) لأنّه أدلّ على غضب الله على هؤلاء الكافرين المُلحدين لتماديهم في الضلال بعد هذا البسط والبيان لدلائل وحدانيّته[2].

ويشير سياق المقطع في الشاهد إلى أنّ الله تبارك وتعالى زاد في تهديدهم، فحُذِف الخَبَرُ في قوله (إنّ الذين كفروا بالذكر لمّا جاءَهم) لزيادة تهويل ما سيُلاقونه من عذاب ولتذهبَ نفوسُهم في تخيّله كلّ مذهب، وتقدير المحذوف (هالكون أو مُعذَّبون)[3].

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ١٩٨

(٢) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ١٩١ ـ ٢٠٠

(٣) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٥/ص٣٦٦، ٣٦٧. والألوسي، روح المعاني، ج١٢/ص٣٧٨

وفي السياق كذلك تعظيم لشأن القرآن الكريم وتمهيد للحديث عن كماله، ففيه الآيات البيّنات على وحدانيّة الله تعالى، وهذا الكمال دالٌّ على سوء مغبّة المُلحِد فيه[١]، وفي موضع الشاهد من هذه السورة تقرير صفات هذا الكتاب المُنْزَل من عند الله، فهو أولًا كتاب عزيزٌ مُمتنِع بمتانة رصْفه وجزالة نظمه وجلال معانيه، وثانيًا لا يلحقه تغييرٌ ما[٢] أو تبديلُ شيءٍ منه[٣]، ثمّ وصفٌ ثالث أخبرَ اللهُ تعالى به على الابتداء وهو (تنزيلٌ من حكيمٍ حميد) كما افتتح السورةَ على الابتداء (تنزيلٌ من الرّحمنِ الرّحيم). وتدلّ صفة (الحكيم) على أنّ الله تبارك وتعالى نزّل القرآن لحكمته في تدبير مِصالِح عباده[٤]، وقد تدلّ كذلك على أنّ الله تعالى مُحكِمٌ لمعانيه[٥].

وفي إجراء هذه الأوصاف على كتاب الله "إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرّطوا فيه ففرّطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة"[٦].

(١) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج١٢/ص٣٧٩

(٢) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ٢٠١

(٣) ينظر الطبري، جامع البيان، ج٢٠/ص٤٤٣

(٤) ينظر الطبري، جامع البيان، ج٢٠/ص٤٤٥

(٥) ينظر: الأندلسي، البحر المحيط، ج٩/ص٣١١. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٤/ص٣٠٩

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٤/ ص ٣٠٩

وأمّا عن كون هذا القرآن مُنزّل من عند الله (الحميد)، فتؤكّد هذه الصفة استحقاقَ الله تعالى منزّل الكتاب للحمد الكثير؛ لإحاطة الكتاب بأوصاف الكمال من الحكمة والتنزّه والتقدّس عن كلّ شائبة نقص(١).

وقد ذهب مفسّرون إلى أنّ هذه الصفة تدلّ على المفعوليّة، فاللهُ تعالى محمود على نِعَمه العظيمة، ومنها نعمة إنزال الكتاب وإن لم يحمده الكافرون المُلحدون(٢)، ذلك أنّ السياق محمّلٌ بالتهديد الشديد لهم على كفرهم(٣)، ممّا يعني ائتلافًا وانسجامًا مع هذه الدلالة.

ولم يذكر أحد من المفسّرين إفادة الفاعليّة من وجه الجزاء والثواب لأنّها لا تتّفق مع التهديد والوعيد، أمّا من وجهها الآخر وهي أنّ الله تعالى حامِد الخلق أجمع حمد النِّعم، ومن هذه النّعم إنزال الكتاب ليهديهم به فالأرجح انسجامها مع السياق، ونلمس هذا عند الرازي لقوله "حميد إلى جميع خَلقه بسبب كثرة نِعَمِه"(٤).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ٢٠٢ . وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٤/ص٣٠٩

(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٠/ص٤٤٥. والأندلسي، البحر المحيط، ج٩/ص٣١١. والبقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ص٢٠٢. والألوسي، روح المعاني، ج١٢/ص٣٧٩. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٤/ ص ٣٠٩

(٣) ينظر: الأندلسي، البحر المحيط،ج٩/ص٣٠٩ــ ٣١١ . والبقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ص٢٠٠

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٧/ ص١٣٣

قامت هذه السياقات الستة في سورة النساء وإبراهيم[٨] ولقمان[٢٦] وفاطر والتغابن وفُصّلت على معاني الزجر والوعيد والتهديد.

ويُلاحظ أنّ المخاطَبين في هذه السور هي الفئات التي آثرت الكفر على الإيمان وأصاب الأنبياء والمؤمنين منها أذى شديد، فالخطاب للكافرين في سياق سورة النساء أو لعامّة الناس ممّن قد يحيدون عن جادة الحقّ والإيمان، وفي إبراهيم خطاب من موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وفي لقمان[٢٦] والتغابن للكافرين أيضًا، وفي سورة فاطر للناس عامّة وكفّار قريش خاصّة، وفي فصّلت للكافرين المُلحدين. ومن الجليّ أنّ هؤلاء المُخاطبين وَجّهت الآياتُ إليهم ما يردعهم ويخوّفهم بعدما تمادَوا في العمى والضلال.

فسياق سورة النساء يحذّر مَنْ سار على طريق أهل الكتاب من الكفر ويتوعّدهم باستبدال آخرين بهم، وكذلك سياق إبراهيم[٨] يتوعّد بني إسرائيل إن بقوا على الكفر والضلال، فقد رأوا الآيات المعجِزات الدالّات على وحدانية الله وصدق موسى عليه السلام ولكنّهم تكبّروا وتجبّروا. ويُظهر سياق لقمان[٢٦] محاججة النبيّ صلى الله عليه وسلّم الكافرين لإثبات وحدانيّة الله تعالى بعدما أصرّوا على استمرار عبادة ما وَجَدوا آباءَهم عليه من عبادة الأصنام والشّكّ بوحدانية الله، فأوعدهم عذابًا غليظًا، وفي سورة فاطر تقريرٌ بفقر الناس أجمع وحاجتهم إلى الله تعالى مالكِ كلّ شيء وتهديدٌ بإفنائهم واستبدال آخرين مؤمنين بهم. وفي سورة التغابن كذلك تحذير لكفّار مكّة وتهديد ووعيد أن يُصيبهم ما أصاب الأقوامَ الذين سبقوهم لأنّهم اتّبعوا الطريق ذاتها من تكذيب الأنبياء. وفي فُصّلت وعيد شديد للكافرين المُلحدين الذين يُلقون الشُبهات في كتاب الله تعالى.

فهذه المعاني التي أظهرتها تلك السياقات من التحذير والتهديد والوعيد لا تحتمل معنى الفاعليّة لاسم الله (الحميد) من وجه الجزاء والأجر والمثوبة، فلا انسجام بين هذا المعنى وحال الكافرين الجاحدين الذين يتوعّدهم الله بعذاب أليم. بل هي على خلاف ذلك تدعم معنى المفعوليّة على الوجهين، فالله جلّ وعلا محمود في ذاته، ومحمود من خلقه أجمع بلسان حالهم ومقالهم، وتدعم أيضًا معنى استيجاب الله تعالى الحَمْد على الخلق بصنائعه الحميدة إليهم، فهذه دلائل وحدانيته ودلائل علمه ودلائل قدرته جليّة في الكون فيما يحيط بالخَلْق. وربّما تأتي (الحميد) في هذا السياق بمعنى حامِد حمد العطاء أي مُنْعِم، وقد أشار البحث إلى أنّ هذا النوع من الحمد يتساوى فيه الخلق أجمع إذا يمنحهم الله تعالى ما يُقيم معيشتهم.

وقد اشتمل هذا السياق على تعداد دلائل وحدانيّة الله وكمال قدرته ومُلكه، وفي ذلك ردٌّ على إعراض الكافرين وبرهانٌ على باطل ما يتّبعون من دون الله وصورةٌ أخرى من صور تهديدهم ببيان قدرة الله تعالى على إنزال العذاب بهم. أمّا ما جاء من تلك الدلائل في سياق الحثّ والتثبيت في سورة الحجّ [٦٤] فالقصد منها حثّ المؤمنين على التمسّك بدينهم وتثبيتٌ لهم وتقوية لعزائمهم بإظهار دلائل ملك الله وقدرته وذلك بضرب الأمثال لهم من خلال آيات الله في الكون، فإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وإنزال الماء من السماء فتصبح الأرض حية يانعة نامية بعد أن كانت يابسة لا نفع فيها، فيه إنتاج للأشياء من أضدادها يشهد بعظيم قدرة الله تبارك وتعالى، فهو إذن القادر على إبدال حال المؤمنين من الضعف إلى الغلبة والنصر والتمكين الذي وعدهم إيّاه.

سياق تعليل هداية الناس إلى دين الله تعالى

١- سورة إبراهيم [١]: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾

"أصل (عزز) في الكلام الغلبة والشدّة، والله تعالى هو الغالبُ كلّ شيء[١]، ولاسم الله (العزيز) معانٍ عدّة، فهو الجليل الشريف، والغالب القاهر، والقويّ القادر، الذي لا مِثْل له ولا نظير. وأصل هذا كلّه في اللغة كما يذهب الزجّاجي "راجعٌ إلى الشدّة والامتناع لا يخرج شيءٌ منه عن ذلك"[٢]، وهو بهذه المعاني من صفات ذاته جلّ وعلا.

ومن دلالات (العزيز) ما يتعدّى صفات الذات إلى صفات الأفعال. وتأتي دلالة الفاعليّة من أنّه المُعِزّ لأوليائه المانع لهم وعنهم، (فعيل) بمعنى (مُفْعِل)، (كأليم بمعنى مُؤلِم)، ويتضمّن ذلك الإرادة، فهو يرفع من يشاء من عباده، فيُكرم عبادَه الصالحين وأهلَ طاعته، وذلك يقتضي أيضًا أن يخفض من يشاء ويذلّ من يشاء، ويتضمّن أيضًا قهرَ من سِواه فهو المُمتنِع الذي لا يُرام. إضافة إلى أنّ معنى مُعِزّ يُشير على عبادة العابدين وتقرّبهم إليه سبحانه رجاء رضوانه وخوف عقابه[٣].

(١) ينظر الزجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى ، ص٣٣، ٣٤

(٢) الزجّاجي، اشتقاق أسماء الله الحسنى ، ص ٢٣٩

(٣) ينظر: الرازي، لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات، ص ١٤٨. والقرطبي، شمس الدين(٦٧١هـ)، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، تحقيق عرفان حسّونة، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ١٨٣، ١٨٤

ولعلّه يحمل دلالة المفعوليّة كذلك، فيكون (فعيل) بمعنى (مفعول) معزوز، (كقولهم: كفّ خضيب، بمعنى مخضوب)[١]. أي إنّ كمال قوّته وقدرته وامتناعه جعلته ـ تبارك وتعالى ـ معزوزًا.

يُجلّي سياقُ سورة إبراهيم إثبات وحدانية الخالق ودلائل قدرته، مبيّنًا أنّ هذا الكتاب المنزَل من الله تبارك وتعالى يُرشد إلى الطريق المُبلّغ إلى توحيده[٢]. وقد ذُكر في هذه الآية فاعلُ الإنزال في قوله (أنزلناه)؛ لأنّ السياق يقوم على إظهار هذه النعمة الجليلة على الناس إذ هداهم ربُّهم إلى توحيده وعبادته. أمّا التعرّض للمُنْزَل إليه كما دلّ عليه قوله (لتخرج) إشارةً إلى النبيّ ﷺ فجاء لرفع شأنه وليجعل له حظّ الوساطة في هذه المنّة، ولِما فيه أيضًا من غمّ المُعاندين والمُبغِضين للنّبي عليه الصلاة والسلام[٣].

ولمّا استجمع الله تعالى تعريفَ الكتاب بالأوصاف الموجِبَة للفلاح المذكورة أوّل السورة شوّق بعدها إلى ثمرة إنزال الكتاب على الناس، وهي إخراجهم من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وذلك كلّه بتوفيق الله إيّاهم ولطفه بهم[٤].

ولأجْلِ المقصد المذكور ـ وهو التوحيد ـ وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرات (ربّهم والعزيز والحميد) في قوله (بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد) بعد أن كان المقام للإضمار تِبعًا لقوله (أنزلناه). وقوله (اللَّهِ) عطف بيان لـ (العزيز

(١) ينظر القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، ص ١٨٣
(٢) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص ٣٦٩
(٣) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ ص١٨٠
(٤) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص٣٧٠

الحميد)، لأنّه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تَحِقُّ له العبادة[١].

أمّا صفتا (العزيز الحميد) فجاءتا من بين الصفات العلا لمناسبتهما للسياق، فصفة (العزيز) تناسب إنزال الكتاب، و(الحميد) تناسب إخراج الناس من الظلمات إلى النور. وقد تقدّمت صفة (العزيز) لتقدّم ما دلّ عليها وهو الإنزال، وتلتها صفة (الحميد) لتلوّ ما دلّ عليها وهو الإخراج إلى النور[٢]، فالعزّة تدلّ على عظيم قدرته على إنزال هذا الكتاب المُعجِز الذي لا يَقدِر عليه سِواه[٣]، "وإنزال الكتاب برهانٌ على أحقيّة ما أراده الله من الناس، فهو به غالِبٌ للمخالفين مقيمُ الحُجّة عليهم"[٤].

ويذهب الرازي إلى أنّ صفة (العزيز) في هذه الآية تعني الشريف الرفيع، إذ إنّ إضافتها إلى كلمة (الصراط) جعلت الصراط يكتسب صفة العزّة، فأصبح الصراط شريفًا رفيعًا لأنّه يؤدّي إلى معرفة مَنْ خطّه وهو الله جلّ وعلا[٥].

ولعلّ القرطبي نظر إلى سياق الآيات التي تلت افتتاحية السورة فقال في معنى (العزيز) "المنيع في مُلكه وسلطانه"، و"الذي لا يغلبه غالِب"، فالمعنى الأول إشارة منه إلى قوله تعالى (اللهِ الذي لهُ ما في السّمواتِ وما في الأرض) ، والمعنى الثاني

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ ص١٨٠. والزمخشري، الكشّاف، ج٢/ص٥٣٧

(٢) ينظر الأندلسيّ، البحر المحيط، ج٦/ص٤٠٦

(٣) ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز،ج٣/ص٣٢٢ ، والرازي، مفاتيح الغيب، ج١٩/ص٧٧ والأندلسي، البحر المحيط، ج٦/ص٤٠٥-٤٠٦ . والألوسي، روح المعاني، ج٧/ ص١٧٣. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ ص١٨١

(٤) ابن عاشور التحرير والتنوير، ج١٣/ ص١٨١

(٥) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٩/ ص٧٧

إشارة إلى توعّده الكافرين بعذاب شديد في الآية نفسها (وويلٌ للكافرين مِنْ عَذابٍ شديد)، فالله عزّ وجل بهذه الصفات لا مِثْل له ولا شَبيه[١].

أمّا صفة (الحميد) فتدلّ على أنّ الله تبارك وتعالى هو المحيط بجميع الكمال، وهو المستوجِب للحمد على عباده على ما أولاهم من نعمة إنزال الكتاب عليهم؛ لأنّ فيه هدايتهم ورشدهم إلى طريق الله[٢]، فليس أعظم نعمة من الهداية إلى الإيمان.

في حين أنّ البقاعي والألوسيّ يريان أنّ صفة (العزيز) تشير إلى الفاعليّة، فقد تعني أنّ الله مانِعٌ أن يتعرّض أحدٌ إلى سالكِ طريقِه بغير إذنه[٣]، أو أنّ الله تبارك وتعالى مُعِزٌّ المؤمنين الذين يسلكون طريق التوحيد[٤]. وفي هذا اتّساق مع رأييهما في دلالة (الحميد) على الفاعليّة، فالله جلّ وعلا يحمد عباده إذا سلكوا سبيله، فيُجزل لهم الثواب[٥]، "وتخصيص الوصفين الجليلين بالذكر للترغيب في سلوك هذا الصراط"[٦]؛ فهو ينبّه ذوي الألباب لمعرفة من أين تُنالُ العزّة ويُنالُ الحمد.

(١) ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩/ص٣٣٨

(٢) ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٣/ص٣٢٢ . والرازي، مفاتيح الغيب، ج١٩/ ص٧٦. والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٦/ص٤٠٦ . والبقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص ٣٧٢

(٣) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص ٣٧٢

(٤) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج٧/ ص١٧٣

(٥) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٠/ ص٣٧٢. والألوسي، روح المعاني، ج٧/ ص١٧٣

(٦) الألوسي، روح المعاني، ج٧/ ص١٧٣

ومع أنّ الطبري والقرطبي وابن عاشور يرون في (الحميد) معنى المفعولية فهو محمود من عباده على إنزال الكتاب هذه النعمة الجليلة[1]، إلا أنّ المُلاحظ أنّ السياق يذكر صفات الله الداعية إلى الإيمان به واتّباع طريقه، ومن هذه الصفات أنّه مالكُ المحامد كلّها ومُنعِمٌ على الناس بهدايتهم إلى طريقه، وأنّه حامد عباده المؤمنين كذلك، ممّا يجعل دلالة (محمود) بعيدة عن المعنى المراد من السياق، وهذا يُرجّح أن تكون دلالة (الحميد) على الفاعليّة وليس المفعوليّة.

٢ـ سورة الحجّ [٢٤] :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾

تعرض الآياتُ بشارة لأولياء الله المؤمنين بدخول الجنّة، وقد شوّقهم الله تعالى إليها بذكر نعيمها من جريان الأنهار تحتها ومن زينتهم بأحسن أنواع الحلية ولبسهم الحرير وهدايتهم للقول الطيّب وهدايتهم لصراط الله الحميد. ويرى بعضُ المفسّرين أنّ الطيّب من القول إمّا أن يكون في الدنيا فيعني شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) أو القرآن المتلوّ منهم، وإمّا أن يكون في الآخرة وهو قول أهل الجنّة (الحمد لله) وما جرى معه من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبيحه وتقديسه وسائر كلامهم من محاورة بعضهم بعضًا، فليس في الجنّة لغو ولا كذب فكلّ ما يقولونه طيّب[2] مصداقًا لقوله تعالى في سورة الأعراف﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ٤٣ ﴾ وقوله

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٣/ص٥٨٨. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩/ص٣٣٨. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٣/ص١٨١

(٢) ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٤/ص١١٥. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٢٣. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ص٣١. والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٧/ص٤٩٨

في سورة يونس ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ وسورة فاطر ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ ٣٤﴾.

أمّا المقصود بـ (وهدوا إلى صراط الحميد) فقال فيها علماء التفسير قولين، الأول يتّكئ على جعل (الحميد) صفة للصراط ، وهو على وجهين:

أولّهما : طريق الإسلام الذي دعا عباده إليه في الدنيا الموصل إلى رضى الله تعالى، فيكون (الحميد) صفة لـ (صراط)، فإضافة صراط إليه من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، وفي جملة (وهدوا إلى صراط الحميد) إيماء إلى سبب استحقاق المؤمنين تلك النّعَم وهو أنهم اهتَدوا إلى الإسلام أو دين التوحيد في الحياة الدنيا(١).

وثانيهما: هو طريق الجنّة في الآخرة(٢)، بمعنى هداهم الله إليها حتى يدخولها، ويرجّح الألوسي هذا الرأي على سائر الأقوال الأخرى(٣).

أمّا القول الثاني للمفسّرين في (وهدوا إلى صراط الحميد) فيتّكئ على أنّ (الحميد) وصفٌ لله تعالى(٤)، أي هداهم ربّهم في الدنيا إلى طريق الربّ الحميد، وطريقه هو دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرَهم أن يسلكوه، وقد أضيف (صراط) إلى اسم الله (الحميد) لتشريف هذا الصراط المُتّبَع؛ لكونه مُفضيًا إلى الله

(١) ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٤/ص١١٥. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٣/ ص٢٣. والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٧/ص٤٩٨. وابن عاشور ، التحرير والتنوير، ج١٧/ص٢٣٥

(٢) ينظر الزمخشري، الكشّاف، ج٣/ص١٥١

(٣) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج٩/ ص١٣١

(٤) ينظر: الأندلسيّ، البحر المحيط، ج٧/ص٤٩٨ . والألوسي، روح المعاني، ج٩/ ص١٣١. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ص٢٣٥

ورضوانه[١]. والتشريف للصراط لا يصحّ بكون الله تعالى محمودًا من العباد بل بكونه مستحقًّا للحمد أوّلًا وحامدًا مُثنيًا على عباده متفضّلًا مُكرِمًا لهم تاليًا.

فالسياق قائم على تعداد ما يناله المؤمنون من ثواب عظيم بسبب اهتدائهم إلى توحيد الله والإيمان به، وكان أول الثواب إدخالهم الله تعالى جنّات تجري من تحتها الأنهار، وثانيه يُحلّون فيها أساور من ذهب ولؤلؤا، وثالثه لباسهم فيها حرير، ورابعه هدايتهم للقول الطيّب كحمدهم الله وتسبيحهم وذكرهم إيّاه جلّ وعلا، وخامسه هدايتهم إلى صراط الحميد أي إلى دين الله، ذلك أنّ أعظم نعمة ينالونها في الجنّة هي أنّهم كانوا قد عرفوا الله تعالى المحيط بجميع الكمالات والمحامد وآمنوا به فحَمَدَهم ربُّهم بجزائهم الجزاء الأوفى.

ويختلف المفسّرون في بيان دلالة (الحميد) في هذا السياق، فمرّة يرون فيها دلالة الفاعليّة ومرة المفعوليّة، فالألوسي يقول: "فإنّه صراطٌ محمودٌ مَنْ يسلكُه أو محمود هو نفسه أو عاقبته"[٢]، وقوله ("محمود من يسلكه"و محمودة عاقبته) يعني أنّ هذا الصراط حامد السائرين فيه، وقصد أنّ الله حامِدٌ متّبعَ هذا الصراط ، فتكون دلالته على الفاعليّة. وقوله "محمود هو نفسه" يدلّ على المفعوليّة، فهو محمود ممّن اتّبعه. وإلى الرأي الأخير يذهب ابن عاشور في بعض ما قال "فهو فعيل بمعنى مفعول"[٣]. أمّا البقاعيّ فيومئ إلى دلالة الفاعليّة بقوله "الذي وفّقهم لسلوك ما يُحمَدون عليه فيُحمَدون عاقبة"[٤]. والذي وفّقهم إليه هو هدايتهم إلى دينه.

(١) ينظر الألوسي، روح المعاني، ج٩/ ص١٣١
(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٩/ ص١٣١
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧/ص٢٣٥
(٤) البقاعي، نظم الدرر، ج١٣/ ص ٣٢ ، ٣٣

ولعلّ معنى الفاعليّة أكثر ملاءمة للسّياق وأذهب به في الدلالة على القصد، فلو قُدّر التركيبُ بحسب معنى محمود لكان (وهُدوا إلى الطيّب من القول وهُدوا إلى صراط الله المحمود من العباد) فلا ينسجم ذلك، ولو قُدّر بحسب معنى حامد لقيل: (وهدوا إلى صراط الله الحامِد لمن آمن به)، ودليله ما هم به الآن من حُسن نعيم الجنة . لكان أكثر قَبولًا وأكثر تعبيرًا عمّا يقتضيه السياق.

٣. سورة سبأ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ ﴾

تسعى سورة سبأ إلى بيان أنّ نِعَم الله تعالى مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرةٌ في قسمين: نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، حيث تشير إلى البعث الذي لا فناء بعده، وأخبر اللهُ تعالى أنّ جميع مَنْ في السموات والأرض واقع في ملكه وتصرّفه وهو عليم بكلّ ما يجري فيهما؛ فاستوجب بكمال قدرته وسَعَة علمه وتمام نِعَمه الحمدَ على خلقه[١]. ثم بيّن كيف أنّ بعض أحبار اليهود استدلّوا بعلمهم بكلام الله المنزَل في التوراة على أنّ ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من التوحيد وحقيقة البعث هو الحقّ وأنّه يهدي إلى صراط الله تعالى، في حين أنكره قومٌ جاهلون مُكابِرون أصرّوا على الكفر وحجبوا بصائرهم عن رؤية الحقّ فحرموا أنفسهم من اتّباع طريق الهداية الموصل إلى جنّات الخلود.

وقد شُرّف هذا الصراط بأن أضيف إلى اسمين جليلين من أسماء الله هما (العزيز الحميد)، فجاء السياق ليبشّر المؤمنين الذين اتّبعوا صراط الله تعالى بالمغفرة والرزق الكريم، ويهدّد الجاحدين الحائدين عن الصراط بعذاب من رجز أليم.

ولهذين الوصفين (العزيز الحميد) في سياق سبأ دلالتان:

(١) ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ ص٢٣٩ـ ٢٤٠

الأولى: تقوم على ارتباط صفة (العزيز) بالمشركين وصفة (الحميد) بالمؤمنين، فالله عزيزٌ أي مُنتقِم من أعدائه فهو الغالب القويّ القادر على قهرهم، فبحسب ما أظهر السياق ناسبت صفة العزّة موقف المُعاجِزين المُعانِدين الذين يسعَون في التكذيب، أمّا صفة (الحميد) فناسبت موقف المؤمنين، والقصد أنّ الله تبارك وتعالى حامِد حمدَ جزاء لهم فيشكر سَعيَهم وعملهم الصالح(١).

والثانية: تقوم على ارتباط كلّ من الصفتين بالمؤمنين، فـ (العزيز) بمعنى المُعِزّ، فالله تعالى يُعِزُّ مَنْ سلك طريق الإسلام، ذلك أنّ الكفار كانوا مُستَظهِرين، في حين كان المؤمنون قليلين خائفين، وربّما كان من المؤمنين مَنْ هو مِن ضِعاف القوم، فأراد الله تعالى أن يبشّرهم بالعزّة الحاصلة من إيمانهم بالله العزيز، فتتضافر دلالة (العزيز) في هذا السياق مع دلالة (الحميد)، فمَن أعزّه اللهُ ورفع ذكره وأكرمه حَمده اللهُ كذلك وأجزل له ثوابًا عظيمًا فحمده كلُّ شيء وإن تمالأ عليه الخلقُ أجمعون(٢). وفي هذا إيماء إلى أنّ المؤمنين المُتّبِعين هذا الصراط يستشعرون أنّه صراط يبلغون به إلى عزّة الله لهم وحمده إيّاهم(٣)؛ فصفة (الحميد) في هذه الآية توثّق أمرين هما السبب في إيمان بعض أحبار اليهود بالقرآن الكريم، فالأول أنّهم علِموا يقينًا أنّ الله تعالى له المحامد كلّها، ومنها إنزال الكتاب والهداية به، فهو مستحقّ الحمد، والثاني أنّهم علِموا أنّه مُجازيهم على هذا الإيمان أحسن الجزاء فهو حامِد عباده المُهتدين، ممّا يعني دلالتها على الفاعليّة في الجزاء وفي وهب النّعم كنعمة إنزال الكتاب.

---

(١) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٥/ ص٢٤٤ . والبقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ ص٤٥٠

(٢) ينظر البقاعي، نظم الدرر، ج١٥/ ص ٤٤٩، ٤٥٠

(٣) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢/ ص١٤٦

والمُلاحظ أنّه لم يُشِر إلى معنى المفعوليّة أيُّ أحد من المفسّرين، فالأرجح أنّه خارج عن دلالات السياق؛ فإيمان بعض أحبار اليهود لا يكون بسبب أنّ الله تعالى محمود من الخَلْق.

٤. سورة البروج: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾

تهدف سورة البروج إلى بيان قدرة الله تعالى على الانتصار لأوليائه المؤمنين، وقدرته على تعذيب الكافرين المتجبّرين والانتقام منهم، فذَكَرَ اللهُ عزّ وجلّ قصة أصحاب الأخدود، وهم المؤمنون الذين عُذِّبوا بإلقائهم في النار، وكان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم فما حادوا عن الحقّ ولا ضعُفوا، وصبروا فخُلّد ذكرُهم يُضرب بهم المثلُ قدوةً بهم، وفي هذا كلّه تسليةٌ لقلوب المؤمنين وتثبيت لهم على أذى كفّار قريش وبُشرى لهم لِما ينتظرهم من جزيل الأجر.

وقد بيّنت الآية الكريمة أنّ الكافرين لم ينقموا من المؤمنين إلا لأنّهم آمنوا بإلهٍ عظيمٍ كاملِ الصفات والأفعال، فذكرتْ أوصافَ الله تبارك وتعالى التي يستحقّ لأجلها أن يُؤمَن به ويُعبَد، وإجراء هاتين الصفتين (العزيز الحميد) على اسم الجلالة لزيادة تقرير أنّ ما نقمه الكافرون منهم ليس من شأنه أن يُنقَم عليهم بسببه، بل هو حقيق بأن يُمدَحوا به؛ لأنّهم آمنوا بربّ يستحقّ بأن يؤْمَن به لأجل صفاته التي تقتضي عبادته ونبذ ما عَداه، صفاتِ القدرة والحمد، فهو عزيز غالب قادر يُخشى عقابُه وحميد مُنعِم يُرجى ثوابه[1].

(١) ينظر: الزمخشري، الكشّاف، ج٤/ص٧٣٢. والبقاعي، نظم الدرر، ج٢١ / ص ٣٥٨. والألوسي، روح المعاني، ج١٥/ص٣٠٠. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣٠/ ص٢٤٤

ولعلّ لذكر هاتين الصفتين غرضًا آخر، ففي صفة (العزيز) إشارة إلى أنّه شديد في انتقامه من أعدائه وأعداء المؤمنين، فعذابه لهم لا يعدله عذاب[1]، وإن كان قد أمهلهم ولم يوقِع عليهم العذاب في الدنيا إلّا أنّه سبحانه لم يهملهم، فلو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب المؤمنين، ولأطفأ نيرانهم ولأماتهم، ولكنّ المُعتَبر عنده عواقبُ الأفعال، فإنّه تعالى يُوصل ثواب المؤمنين إليهم، وكذلك عقاب أولئك الكفرة، ويرى الرازي أنّ صفة (العزيز) تحمل وعيدًا شديدًا للمجرمين، وصفة (الحميد) تحمل وعدًا عظيمًا للمُطيعين، فهو يُثيب من أصيب فيه أعظم ثواب[2]، فلا يبعُد عنه سبحانه الجمع بين الانتقام والإنعام وبين شدّة البطش وعظم الشكر[3]، وفي كلتا الصفتين طمأنة للمؤمنين وتثبيت لهم على الحقّ.

وتؤكّد هاتان الصفتان (العزيز الحميد) أنّ المؤمنين على يقين من أنّ الله تعالى قويّ غالب قادر على نصر مواليه وما عداه ضعيف العزّة لا يضرّ ولا ينفع، ولهذا آمنوا به وصبروا على ما أوذوا وآثروا جناب الله على ما سواه.

ويُشار إلى أنّ صفة الله (الحميد) ـ في كلّ ما سبق ذكره ـ تدلّ على الفاعليّة، فهو حامِد المؤمنين الصابرين حمد جزاء على إيمانهم وعلى حسن ظنّهم بالله تعالى ويقينهم به كما اتّضح فيما يراه الزمخشري والرازي والبقاعي والألوسي وابن عاشور.

---

(١) ينظر الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ص٢٧٩

(٢) ينظر:الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣١/ ص١٢١ . والبقاعي، نظم الدرر، ج٢١ / ص ٣٥٨

(٣) ينظر المهايمي، علي بن أحمد(٨٣٥هـ)، تبصير الرحمن وتيسير المنّان، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٣م، ج٢/ ص٣٩٧

وقد ذهب الطبريّ والقرطبيّ إلى دلالة المفعوليّة، فالله تبارك وتعالى محمود من خلقه[1]. والراجح أنّه معنى لا ينسجم مع السياق؛ لأنّ الإيمان بالله تعالى لا يكون لأنّه محمود من الخَلق، بل لأنّه مستحقّ للحمد وحامد مُنعِم ومُثيب.

ومن دلالات (العزيز) هنا أنّ الله مُعِزّ المؤمنين، ممّا يعني اتّفاقًا في معنى (العزيز) و(الحميد) على الفاعليّة.

ويُستخلَص ممّا سبق أنّ السياقات الأربعة الآنفة تعرِضُ كلُّها سبب اتّباع طريق الوحدانيّة والإيمان بالله تبارك وتعالى، فسياق الآية في سورة إبراهيم[١] يصرّح بأنّ إنزال القرآن الكريم جاء لإخراجهم من الكفر إلى طريق الهداية طريق الله العزيز الحميد. وسياق الحجّ [٢٤] يعرض ما يناله المؤمنون من نعيم الجنّة، فالله تبارك وتعالى حامد لهم إذ أنعم عليهم بتيسير أسباب الهداية في الدنيا. وسياق سبأ يتناول أيضًا الحديث عن سبب إيمان بعض الأحبار بالقرآن الكريم، فهو يهدي إلى طريق الله العزيز الحميد. أمّا سياق البروج فبيّن كذلك دافع المؤمنين للتمسّك بدينهم والذي كان سببًا في عذابهم، وهو أنّهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

والأرجح أنّ الإيمان واتّباع طريق الله لا يكون لأنّ الله تعالى محمود من العباد، فدلالة المفعوليّة لا تصحّ هنا، في حين أنّه من الجليّ أنّ الإيمان والهداية حاصلان لأنّ الله تعالى مستحقّ للحمد لكماله أولًا، ولأنّه حامدٌ منعمٌ على عباده إذ يسّر لهم أسباب الهداية ثانيًا، ولأنّه أوعد متّبعيه المؤمنين بالجزاء الحسن والمثوبة العظيمة ثالثًا، فمعنى الفاعليّة هو الأوفق بالدلالة على القصد.

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٢٤/ص٢٧٩. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٩/ص٢٩٥

سياق تعليل النّعم العظيمة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته

- سورة هود : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾

أصلُ المجد الكثرة والسَّعة[١]، وهو مأخوذٌ من قولهم (أمجدتْ الدّابة)، إذا أكثرْتَ علَفَها ونالت شبعَها، وفي المثل "في كلّ شجر نارٌ، واستَمْجَدَ المَرخُ والعَفار"؛ لأنهّما صلُح الاقتداح بهما فيُسرعان الوَرْي[٢]. والمجيد: الواسع الشّريف، وتدلّ على السّخاء وكثرة الخير[٣]، والمجدُ مستلزِم للعظمة والسّعة والجلال[٤]، واسم الله (المجيد) يجمع بين شرف الذات وحسن الفعال وكثرة العطاء[٥]، ويدلّ على أنّ الله تبارك وتعالى كامل القدرة كثير الجود والرحمة والفضل والإحسان[٦]، ففيه تعبيرٌ عن غزارة ما يُفيضه الله على المُصطفين من عباده[٧].

جاءت رسلُ الله تعالى بالبشرى بالولد لإبراهيم وزوجه، ولمّا شافهوها بذلك عجِبت عجَبًا شديدًا، وصرّحت بوجه العجب من أنّها وزوجها قد بلغ منهما الكبر مبلغًا، فإنجاب الولد في هذه الحال يقع في حيّز المُنكَر الغريب عند الناس، فقال لها

(١) الزجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى ، ص ٥٣

(٢) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (مجد)

(٣) القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، ص٢٣٢

(٤) ينظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٧٦٠، ٧٦١ . وابن القيّم، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، ص٢٥٥

(٥) الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ، ص ١٢٣

(٦) ينظر الرازي، لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات، ص٢١٣

(٧) ينظر جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، ص٢٠٣٤

الملائكةُ إنّه لا ينبغي لها العجب لسببين، الأول: أنّ اللهَ قادرٌ على كلّ شيء، والثاني أنّها قد علِمَتْ ما خَصّ به اللهُ تبارك وتعالى إبراهيمَ وأهلَ بيته من الرحمة والبركات واعتادتْ ذلك، كاصطفائه نبيًّا وخليلًا له سبحانه وحدوث المعجزات معهم والتوفيق للخيرات العظيمة والكرامات العالية الرفيعة، ثم أكّد الملائكة ذلك بقولهم (إنّه حميد مجيد) يصفون اللهَ تعالى بصفتين ملائمتين لفيوض عطاءات رحمته.

واختلف المفسّرون حول دلالة (الحميد) في هذه السورة، فمنهم من قال إنّها بمعنى محمود[1]، والظاهر أنّها بعيدة عن السياق؛ فهو يقوم في أساسه على بيان العلّة التي توجِب عدم تعجّب زوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من رزقها الولد وعدم إنكارها ذلك، والتعليل يقتضي أن تُذكَر صفاتُ الله التي تدفع التعجّب وتُثبِت الرحمةَ والنعمةَ والقدرة.

وما يُظهره النصّ أنّ صفة (حميد) تعني أنّه مستوجِب الحمد لما له من عظيم الفضل والنّعَم وتكاثر الخيرات على أهل بيت إبراهيم عليه السلام، ومن أنواع الفضل والكرم أنّه لم يمنع إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن مطلوبه من الولد، وهذا من كرمه وجوده[2]. وهذا يشير إلى أنّها تحمل دلالة الفاعليّة، كما قال الراغب الأصفهانيّ، أي إنّ الله تعالى حامدٌ آل بيت النبوّة[3] حمد العطاء والنِّعَم، فقوله (إنّه حميد مجيد) "تعليل لتوجّه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمَدُ من يُطيعه، وبأنّه

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٢/ص٤٨٥. والرازي، مفاتيح الغيب ج١٨/ص٢٩. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٩/ص٧١ . والأندلسيّ، البحر المحيط، ج٦/ص١٨٥. والألوسي، روح المعاني، ج٦/ص٢٩٩

(٢) ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٣/ص١٩٢. والرازي، مفاتيح الغيب، ج١٨/ص٢٩ . والبقاعي، نظم الدرر، ج٩/ ص٣٣٢ ، ٣٣٣. والألولسي، روح المعاني، ج٦/ص٢٩٩

(٣) ينظر الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٢٥٦

(مجيد)، أي عظيم الشأن لا حدّ لنِعَمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدًا، وفي اختيار وصف (الحميد) من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام وأهله"[١].

وربّما خلط بعض المفسّرين بين المحمود بمعنى محمود من العباد بوقوع هذا الفعل حقيقة منهم تجاه الله تعالى، وبين معنى المستحقّ للحمد أو المستوجِب للحمد عليهم لعظيم نعمه وفضله، ومن هؤلاء الرازي، يقول" الحميد هو المحمود، وهو الذي تُحمَد أفعالُه"، ثم يقول بعد ذلك "فثبت أنّ المقصود من ذكر هذه الكلمات إزالة التعجّب"[٢]، ولا يُزال التعجّب بكون الله محمودًا بل بكونه حامدًا مُنْعِمًا. وعلى هذا يكون قد قصد المُستحقَّ للحمد ولم يقصد دلالة المفعوليّة.

ويعلّل الألوسيّ معنى المحمود الذي ذهب إليه بأنّ هذه الجملة (إنّه حميد مجيد) تومئ إلى أنّ مقتضى حال زوج إبراهيم عليهما السلام "أن تحمدَ مستوجِبَ الحَمْدِ المُحسِنَ إليها بما أحسنَ وتُمجّدَه إذ شرّفها بما شَرف"[٣]. وربّما هذا المعنى يتّفق مع (إنّه حميد مجيد) إنْ كانت هذه الجملة مستأنفة، ولكنّ ظاهر الكلام يشير إلى أنّ هذه الجملة تذييل لِما سبق قوله في الآية من أسباب دَفْع التعجّب، فهي متّصلة بتلك المعاني ومؤكّدة لها.

فمقام الحديث الذي دار بين الملائكة وإبراهيم وزوجه ـ عليهما السلام ـ في هذه الآيات هو مقام تِعداد النّعَم والتذكير بها وبيان كثرتها على إبراهيم وآل بيته. فأحسن ما قُرِن هنا اسمُ المجيد إلى الحميد، فإلى المجد والحمد يرجع الكمال كلّه .

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢/ ص١٢٢

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٨/ص٢٩

(٣) الألوسي، روح المعاني، ج٦/ص٢٩٩

كما يقول ابنُ القيّم، فالحمد يستلزم المحبّة والمجد يستلزم العظَمة والسَّعة[1]؛ فكلّ ما أعطاه الله تعالى لنبيّه إبراهيم كان لمحبّته إيّاه فحمدَه اللهُ بهذه النّعم، وهذا الحمدُ من الله تعالى لإبراهيم وآل بيته جاء مُضاعَفًا مُباركًا فهو كثير الإحسان إليهم. فهذه المعاني كلّها تجعل من الأَوْلى أن تكون دلالة (حميد) على الفاعليّة.

(١) ينظر: ابن القيّم، التبيان في أقسام القرآن، ص٦٤. وابن القيّم، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، ص٢٥٥، ٢٥٤

سياق الامتنان على العباد

ـ سورة الشورى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

الوليّ هو الناصر[١] والمُنعِم[٢]، وهو المتولّي لأمور العالم والخلائق القائم بها، وفيه معنى التدبير والقدرة والفعل[٣].

في سياق هذه الآية من سورة الشورى يبيّن الله تبارك وتعالى للناس دلائل ألوهيته في هذا الكون، فهو الذي يُنزّل الغيث بعدما يئس الناس منه وعلموا أنّه لا يقدر على إنزاله غيرُه سبحانه وتعالى، ويزيد الله تبارك وتعالى الناس من فضله فينشر بركات ذلك الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب(٤)، وختام ذلك كان بوصف الله تعالى نفسه بقوله (وهو الوليّ الحميد).

وقد اتفق معظم المفسّرين على أنّ (الحميد) تدلّ على المفعوليّة، وذلك من خلال تعبيرات متعدّدة وردت عندهم، كقولهم "الحميد بأياديه عندكم، ونعمه عليكم في خَلقِه"[٥]، والمحمود على إحسانه ونعمائه على ما يوصل للخلق من أقسام

(١) ينظر الزجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص٥٥

(٢) ينظر السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ج٤/ص٣٤١

(٣) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (ولي)

(٤) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ٣١٠، ٣١١ . والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٧/ص١٧٢

(٥) الطبري، جامع البيان، ج٢٠/ص٥١١

الرحمة[١]، و"تُحمَدُ أفعالُه ونِعمُه"[٢]، و"المحمود بكلّ لسان"[٣]، و"يُعطي ما يُحمَد عليه، ووصف (حميد) فعيل بمعنى مفعول"[٤].

وممّا يلاحظ فيما قاله المفسّرون أنّهم نظروا للحمد الحاصل من العباد لله تعالى على نعمه وإحسانه بإنزال الغيث، ولم ينظروا للعطاء الربّاني وهو الغيث بوصفه حمدًا منه تعالى لسائر خلقه عامّة والمؤمنين منهم خاصّة ؛ لذلك فَهُمْ يتّجهون في دلالة (الحميد) إلى المفعوليّة.

ولمّا كان السياق يعتمد أساسًا على إظهار آيات الله التي تدلّ على بديع صنعه وعظيم قدرته واستحقاقه لجميع صفات الكمال المقتضية انفراده بالإلهية والوحدانيّة[٥]، فإنّ الأولَى النظر إلى ما يحصُل منه سبحانه وليس النّظر إلى نِتاج فِعله وأثره في العباد من الحَمْد والشّكر. فالأرجح أن يدلّ اسم الله (الحميد) هنا على الفاعليّة فيكون بمعنى حامِد عبادَه بإحسانه إليهم وإنزال رحماته عليهم من الغيث وغيره من أسباب الحياة. وهو معنى ذهب إليه البقاعي بقوله: فالله تعالى "يَحْمَدُ من يُطيعُه فيزيده من فَضلِه ويصلُ حبلَه دائمًا بحَبلِه"[٦].

---

(١) ينظر: الزمخشري، الكشّاف، ج٤/ص٢٢٤. والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٧/ ص١٧٢. والأندلسي، البحر المحيط، ج٩/ص٣٣٨

(٢) ابن عطية، المحرّر الوجيز، ج٥/ ص٣٦

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦/ص٢٩

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥/ ص٩٦

(٥) ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ج٥/ص٣٦. والبقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ٣١٠، ٣١١ . وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٥/ ص٢٥ . والرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٧/ص١٧٢

(٦) البقاعي، نظم الدرر، ج١٧/ ص ٣١١، ٣١٢

الخاتمة

توصّل البحث إلى جملة من النتائج، يوجِزها فيما يلي:

١ـ لاسم الله (الحميد) دلالات أربع، الأولى أنّه جلّ وعلا صاحب الكمالات كلّها، فكلّ صفاته وأفعاله محامد. والثانية أنّه المستحقّ للحمد. وأمّا الثالثة فمحمود بمعنى (مفعول)، أي محمود من نفسه أوّلا، ثمّ محمود مِن عبادِه لسببين؛ لاتّصافه بنعوت الكمال المُطْلَقُ، ولنِعَمِه وإحسانه. وأمّا الرابعة فهو حامِد بمعنى (فاعِل)، فالله تعالى حامِدٌ نفسه ابتداء ومن ثمّ حامِدٌ عبادَه أجمع حمدَ نِعَمٍ عَطاء، وحامِدٌ المؤمنين الصالحين حمدَ جزاءٍ وثواب. فاسم الله (الحميد) أكثر استيعابًا لمعاني الحمد من لفظ محمود (مفعول) ولفظ حامِد (فاعِل).

٢. ضمّ اسمَ الله (الحميد) خمسةُ سياقات هي: سياق الحثّ والوعظ والتثبيت، وسياق التهديد والوعيد، وسياق تعليل هداية الناس إلى دين الله، وسياق تعليل النّعم العظيمة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته، وسياق الامتنان على العباد.

٣ـ جاء سياق الحثّ والوعظ والتثبيت في خمس سور: البقرة والحجّ[٦٤] ولقمان[١٢] والحديد والممتحنة، وقد اقترن فيها جميعًا اسم الله (الحميد) باسمه (الغنيّ)، والحثّ والوعظ والتثبيت معان تستلزم الإشارة إلى المثوبة والجزاء، خاصّة أنّ المخاطبين فيها هم المؤمنون أو النبيّ، فكانت دلالة (حميد) تجمع بين المفعوليّة والفاعليّة، فالله تعالى محمود من خلقه أجمع ومن المؤمنين، وهو كذلك حامِدٌ يُثيبهم ويُحسِن جزاءهم، ويفيض عليهم من نِعَمه.

٤ـ ظهر سياق التهديد والوعيد في ست سور: النساء وإبراهيم[٨] ولقمان[٢٦] وفاطر والتغابن وفُصّلت، جاء (الحميد) فيها مقترنًا باسمه (الغنيّ) باستثناء الوارد في سورة فُصّلت حيث اقترن باسمه (الحكيم)، وقد كان المخاطبون

فيها الكفّار عامّة وكفّار قريش خاصّة وبني إسرائيل، لذلك وَجّهت الآياتُ إليهم ما يردعهم ويُخوّفهم. ولعلّ دلالة الفاعليّة لا تتناسب من وجه الجزاء والثواب مع هذا السياق سوى أن تكون بمعنى حامِد حمد العطاء، أي مُنْعِم، وقد أشار البحث إلى أنّ هذا النوع من الحمد يتساوى فيه الخلق أجمع إذ يمنحهم الله تعالى ما يُقيم معيشتهم، والأرجح أنّ (حميد) هنا دلّ على المفعوليّة فهو المحمود لكماله ولنِعَمِه.

٥ـ "إنّ الغِنى صفة كمال والحَمْد كذلك، واجتماع الغِنى مع الحَمْد كمالٌ آخر"(١)، فاقتران اسم الله (الحميد) بـ (الغنيّ) في سياقيّ الحثّ والتهديد في السور العشر المختلفة جلّت معنًى لا نجده ظاهرًا في سياق اقترانه مع أسماء أخرى، وهو أنّ الله تبارك وتعالى محمود في ذاته من غير حَمْد الخَلْق له فهو غنيّ عنهم، وفي سياق التهديد خصوصًا يبرز معنى أنّ الله محمود عند خلقه أجمع حتى الكافرين منهم، يحمدونه بلسان الحال وإن لم يحمدوه بلسان المقال.

٦. اشتمل سياق التهديد والوعيد على تعداد دلائل وحدانيّة الله وكمال قدرته ومُلكه، وفي ذلك ردٌّ على إعراض الكافرين وبرهانٌ على بطلان ما يتّبعون من دون الله وصورةٌ أخرى من صور تهديدهم ببيان قدرة الله تعالى على إنزال العذاب بهم. أمّا ما جاء من تلك الدلائل في سياق الحثّ والتثبيت في سورة الحجّ [٦٤] فالقصد منها حثّ المؤمنين على التمسّك بدينهم وتثبيتٌ لهم وتقوية لعزائمهم، فكما يملك الله عزّ وجلّ السموات والأرض ويتصرّف بهما وبالليل والنهار وإنزال الماء وإحياء النبات فهو أيضًا القادر على إبدال حال المؤمنين من الضعف إلى الغلبة والنصر والتمكين الذي وعدهم إيّاه.

(١) ابن القيّم، بدائع الفوائد، ج١/ص٢٨٣

٧ـ سياق تعليل هداية الناس إلى دين الله تبارك وتعالى واتّباع طريق الوحدانيّة ظهر في أربع سور: إبراهيم[١] والحجّ[٢٤] وسبأ والبروج، وفيها اقترن (الحميد) بـ (العزيز) باستثناء الوارد في سورة الحجّ[٢٤] جاء منفردًا، وقد غلبت هنا دلالة الفاعليّة فهي أذهب باسم (الحميد) إلى القصد والغاية؛ ذلك أنّ الإيمان والهداية حاصلان لأنّ الله تعالى حامِدٌ تفضّل على عباده بنِعمٍ جليلة لا يُحصى عددها ولا ينفد نفعُها كنعمة إنزال الكتاب وإيضاح طريق الحقّ وهدايتهم إليه، وهو جلّ وعلا حامِد أيضًا متّبعيه المؤمنين بالجزاء الحَسَن والمثوبة العظيمة.

٨ـ اقتصر سياق تعليل النّعم العظيمة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته على سورة هود، وفيها اقترن (حميد) مع (مجيد)، وقد أظهر السياق ـ تحديدًا ـ العلّة التي توجب عدم تعجّب زوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من رزقها الولد، وهذا التعليل يقتضي أن تُذكَر صفاتُ الله التي تدفع التعجّب وتُثبِت الرحمةَ والنعمةَ والقدرة، لذا فالأرجح أن يناسبه دلالة استيجابِه الحمد ودلالة الفاعليّة، فهو سبحانه حامِد لهم حمد النِّعم وحمد الجزاء.

٩ـ برز سياق الامتنان على العباد في سورة الشورى، حيث جاء اسم الله (الحميد) مقترنًا باسمه (الوليّ)، وقد دلّ على الفاعليّة من وجه أنّه حامِد عبادَه حمد العطاء بإحسانه إليهم وإنزال رحماته عليهم من الغيث وغيره من أسباب الحياة.

١٠ـ لم يجد البحثُ مفسّرًا يجزم بدلالة (حميد) على واحدة من الدلالات المذكورة، فمعظم ما قالوه لا يُجاوز الاحتمالات التي قد لا يصل بعضُها إلى درجة الترجيح، وربّما قال المفسّر باحتمال الفاعليّة (حامِد) والمفعوليّة (محمود) أو كلتيهما معًا، متّكئًا في هذا على ما يحمله سياق الآية أو سياق المقطع ـ في بعض الأحيان ـ من دلالات.

١١. مِن المفسّرين مَنْ لم يُجاوِز القول بدلالة المفعوليّة في جميع المواضع على اختلاف معاني السياق فيها، ومنهم الطبري والزمخشري وابن عطيّة والقرطبي وأبو حيّان، ممّا يشي برفضهم لدلالة الفاعليّة، ولعلّهم تأثّروا برأي علماء الأصول كالخطّابي والغزالي وابن القيّم. في حين اقتصر القول بدلالة (حميد) على الفاعليّة من وجه الجزاء والثواب على الرازي والبقاعي والألوسي وابن عاشور، وربّما قالوا بجواز الدلالتين الفاعليّة والمفعوليّة بحَسْب ما يتيحه السياق من قرائن لفظيّة ومعنويّة.

والله تعالى أعلم، وهو الموفّق للحقّ،،،

المصادر والمراجع

١ـ أبادي، الفيروز(٨٢٣هـ)، القاموس المحيط، تحقيق نصر الهوريني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م

٢ـ الأشبيلي، ابن عصفور(٦٦٩هـ)، المُمتِع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م

٣. الأشقر، عمر، شرح ابن القيّم لأسماء الله الحسنى، دار النفائس، عمّان، ط١، ٢٠٠٨م

٤ـ الأصفهاني، الراغب(٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٩م

٥ـ الألوسي، شهاب الدين(١٢٧٠هـ)، روح المعاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ

٦ـ ابن الأنباري، أبو بكر(٣٢٨هـ)، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٩٨٧م

٧. الأندلسي، أبو حيّان(٧٤٥هـ)، البحر المحيط، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ

٨ـ أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، تعريب كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م

٩. البطليوسي، أبو محمد عبدالله(٥٢١هـ)، الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م

١٠ـ البقاعي، برهان الدين(٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٤م

١١ـ بنعدة، محمد، السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري، رسالة دكتوراة، جامعة محمد بن عبد الله، المغرب، ١٤١٨هـ

١٢ـ ابن تيمية، تقي الدين أحمد(٧٢٨هـ)، الرسالة التدمرية، تحقيق محمد السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٦، ٢٠٠م

١٣ـ ابن تيمية، تقيّ الدين أحمد(٧٢٨هـ)، الفتاوى الكبرى، تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، دار الكتب العلميّة ، بيروت، ط١، ١٩٨٧م

١٤ـ ابن تيمية، تقيّ الدين أحمد(٧٢٨هـ)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمّع الملك فهد، السعودية، ١٤٢٥هـ

١٥. جبل، محمد، المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م

١٦ـ الجرجاني، الشريف(٨١٦هـ)، معجم التعريفات، تحقيق محمد المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة،(د.ت)

١٧. الجرجاني، عبد القاهر(٤٧٤هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٢م

١٨ـ ابن الجوزي، جمال الدين(٥٩٧هـ) ، نُزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق محمد الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤هـ

١٩ـ حسّان، تمّام، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤م

٢٠. الخطّابي، أبوسليمان(٣٨٨هـ)، شأن الدعاء، تحقيق أحمد الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ط٣، ١٩٩٢م

٢١ـ خليل، إبراهيم، السياق وأثره في الدرس اللغوي: دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنيّة،١٩٩٠م

٢٢. الرازي، فخر الدين(٦٠٦هـ)، لوامع البيّنات شرح أسماء الله تعالى والصفات، تحقيق محمد الحلبي، ط١، المطبعة الشرفية، مصر، ١٣٢٣هـ

٢٣. الرازي، فخر الدين(٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار الفكر، دمشق ، ط١، ١٩٨١م

٢٤. الربيعة، محمد، أثر السياق القرآني في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة، رسالة دكتوراة، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ٢٠٠٦م

٢٥ـ رشاد، غنيم ، المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، جامعة الملك سعود، ٢٠١٣م

٢٦. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني(١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهرالقاموس، (تحقيق عبد الستار فراج)، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥م

٢٧ـ الزجّاج، أبو إسحاق(٣١١هـ)، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق أحمد الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، ط٦، ١٩٨٦م

٢٨ـ الزجّاجي، أبو القاسم(٣٤٠هـ)، اشتقاق أسماء الله الحسنى، تحقيق عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م

٢٩ـ الزجّاجي، أبو القاسم(٣٣٧هـ)، كتاب اللامات، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م

٣٠ـ الزركشي، بدر الدين(٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير عبد الستار أبو غدة، دار الصفوة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م

٣١ـ الزركشي، بدر الدين(٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م

٣٢ـ الزمخشري، جار الله(٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ

٣٣. السامرائي، فاضل، معاني الأبنية في العربية، دار عمّار، عمّان، ط٢، ٢٠٠٧م

٣٤ـ السعدي، عبد الرحمن، الحقّ الواضح المُبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسلين من الكافية الشافية، دار ابن القيم، السعودية، ط٢ ، ١٩٨٧م

٣٥. السمرقندي، أبو الليث(٣٧٥هـ)، تفسير السمرقندي(بحر العلوم)، تحقيق علي معوّض وعادل عبد الموجود وزكريا النوتي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م

٣٦ـ السمين الحلبي، أحمد بن يوسف(٧٥٦هـ)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م

٣٧. السيوطي، جلال الدين(٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م

٣٨ـ الشافعي، محمد بن إدريس(٢٠٤هـ) ، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة الحلبي، مصر، ط١، ١٩٤٠م

٣٩ـ الشتوي، فهد، دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، رسالة ماجستير جامعة أم القرى، مكّة، ١٤٢٦هـ

٤٠. الطبري، أبو جعفر(٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبدالله التركي، دار هجر للطباعة، ط١، ٢٠٠١م

٤١. الطلحي، ردة الله ، دلالة السياق، جامعة أم القرى، مطبوعات جامعة أم القرى، سلسلة الرسائل الجامعية، ط١، ١٤٢٤هـ

٤٢. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م

٤٣ـ عامر، عرفة عبد المقصود، السياق في فكر سيبويه وعلاقته بالمكون التركيبيّ، مجلة المؤتمر الدولي السادس لقسم النحو، ٢٠١٠م

٤٤ـ ابن عثيمين، محمد، شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق أسامة عبد العزيز، دار التيسير، ط١، ٢٠٠٥م

٤٥. ابن العربي، أبو بكر(٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م

٤٦ـ العسكريّ، أبو هلال(٣٩٥هـ) ، الفروق اللغويّة، تحقيق محمد السليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م

٤٧ـ ابن عطية، عبد الحقّ(٥٤٢هـ)، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ

٤٨ـ عمر، أحمد مختار، أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٠م.

٤٩. عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، علم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨م

٥٠. العموش، خلود، الخطاب القرآنيّ دراسة في العلاقة بين النصّ والسياق، مثل من سورة البقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، ٢٠٠٨م

٥١ـ العيد، سليمان، اقتران الأسماء الحسنى في أواخر الآيات من سورة البقرة، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد الرابع والثلاثون، ١٤٢٢هـ

٥٢ـ الغزالي، أبو حامد(٤٥٠هـ)، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ، تحقيق بسّام الجابي، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٣م

٥٣. ابن فارس، أبو الحسين(٣٩٥هـ) ، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ١٩٩١م

٥٤. فندريس ، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ م

٥٥. القاسم، عبد الحكيم، دلالة السّياق القرآني وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير، رسالة دكتوراة، جامعة الإمام، السعودية،١٤٢٠هـ

٥٦. القرطبي، شمس الدين(٦٧١هـ)، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، تحقيق عرفان حسّونة، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م

٥٧. القرطبي، شمس الدين(٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م

٥٨. ابن القيّم، شمس الدين(٧٥١هـ)، بدائع الفوائد، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، جدة، (د.ت)

٥٩. ابن القيّم، شمس الدين(٧٥١هـ) ، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ط٢، ١٩٩٢م

٦٠. ماضي، صبرينة، بلاغة أسماء الله الحسنى بين الدلالة المعجمية والاستخدام القرآنيّ، جامعة فرحات عباس ، الجزائر، رسالة ماجستير، ٢٠١٢م

٦١ـ محمود، المثنّى، السياق القرآنيّ وأثره في الترجيح الدلاليّ، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنيّة، عمّان، ٢٠٠٥م

٦٢. ابن منظور، جمال الدين(٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت،(د.ت)

٦٣ـ المهايمي، علي بن أحمد(٨٣٥هـ)، تبصير الرحمن وتيسير المنّان، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٣م

٦٤. أبو موسى، محمد، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م

٦٥- النيسابوري، أبو عبد الرحمن(٤٣١هـ) وجوه القرآن، تحقيق فضل الرحمن الأفغاني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكّة ، ١٩٨٤م